(نهايته وما فعله ابنه)

وماتَ مِنْ ساعتهِ . وكفَّنه ابنُه ببعْضِ خُلْقانِه ، وغَسَلَه بماءِ البئْرِ ، ودفَنَه مْن غيرِ أنْ يَضْرَحَ لهُ ، أو يَلْحَدَ لهُ ، ورجَعَ .

فلمَّا صارَ فى المَنْزِلِ ، نَظَرَ إلى جَرَّة خَضْراءَ مُعلَّقةٍ . قالَ : أَيُّ شَيْءٍ فى هذهِ الجَرَّةِ ؟ قالُوا : ليسَ اليومَ فيهَا شيءٌ . قالَ : فأىُّ شيءٍ كانَ فيهَا قَبْلَ اليوم ؟ قالُوا : سَمْنٌ . قال : وما كانَ يُصْنَعُ بهِ ؟ قالُوا : كنَّا فى الشِّتاء نُلْقِى لهُ فى البُرْمةِ شيئًا منْ دَقِيقٍ نَعْمَلهُ له ، فكانَ ربَّما بَرَقَهُ بشيءٍ منْ سَمْنٍ . قالَ : تقولُونَ ولا تفعلونَ ! السمنُ أخُو العسَلِ . وهلْ أفسدَ الناسُ أموالَهم إلاَّ فى السَّمنِ والعَسَلِ ؟ والله إنِّى لولاَ أنَّ لِلَجرَّةِ ثَمَنًا لَمَا كسرتُها إلاَّ علَى قبرِهِ ! قالُوا : فخرجَ فوقَ أبيهِ ، وما كنا نَظُنُّ أنَّ فوقَه مَزِيدًا !

(تعريف لكلمات سبقت)

المخطرانِىُّ الَّذِى يأتيكَ فى زِىٍّ نَاسِكٍ ، ويُريكَ أنَّ (بَابَكَ) قدْ قَوَّرَ لِسَانَه مِنْ أصْلِه ، لأنَّه كانَ مُؤَذِّنا هُنَاكَ . ثم يَفْتَحُ فاهُ ، كَما يَصْنَعُ مَنْ يتثاءبُ ، فلاَ تَرى لهُ لِسانًا البَتَّةَ ! ولسانهُ فى الحقيقةِ كَلِسانِ الثَّورِ ! وأنَا أحَدُ مَنْ خُدِعَ بذلكَ . ولا بدَّ للمخطرانِىِّ أنْ يَكُونَ مَعَه واحدٌ يُعَبِّر عنهُ ، أو لوْحٌ أو قِرْطاسٌ قدْ كَتَبَ فيه شَأْنَه وقِصَّتَهُ .

والكَاغَانِىُّ الَّذِى يَتَجَنَّنُ ، ويَتَصَارعُ ، ويُزْبِدُ ، حتَّى لا يُشَكَّ أنَّه مَجْنُونٌ ، لا دَوَاءَ لهُ ، لِشِدَّةِ ما يَنْزِلُ بنفسهِ ، وحتَّى يُتَعَجَّبَ مِنْ بَقاء مِثْلِه علَى مِثْلِ عِلَّتِهِ .

والبانوانُ الذَّى يَقِفُ علَى البابِ ، ويَسُلُّ الغَلَقَ[1] ويقولُ : بانوا ! وتفسيرُ ذلكَ بالعَرَبِيَّة : يا مَوْلاَىَ !

والقَرَسِىُّ الذى يَعْصبُ سَاقَهُ وذِراعَه عَصْبًا شديدًا ، ويَبِيتُ علَى ذلكَ ليلةً . فإذَا تَورَّمَ واخْتَنَقَ الدَّمُ ، مَسَحَهُ بشيءٍ منْ صابونٍ وَدَمِ الأخَوَينِ ، وَقَطَرَ عليه شيئًا منْ سَمْنٍ ، وأَطْبَقَ عليه خَرْقَةً ، وكَشَفَ بعضَهُ . فلاَ يَشُكُّ مَنْ رآه أنَّ به الإكْلَةَ ، أو بَلِيَّة شبْهَ الإكْلَةِ .

والمُشَعِّبُ الَّذى يَحْتَالُ للصَّبِىِّ حينَ يُولَدُ : بأنْ يُعْمِيَه ، أو يَجْعَلَه أعْسَمَ[2]، أو أعْضَدَ[3] ؛ ليسْأَلَ الناسَ بِهِ أهْلُه . وربَّما جاءَتْ به أمُّه وأبوهُ ، ليَتَولَّى ذلكَ منهُ بالغُرْمِ الثَّقيلِ . لأنَّه يَصيرُ حينئذٍ عُقْدَةً وغَلَّةً : فإمَّا أنْ يَكْتَسِبا به ، وإمَّا أن يُكْرِيَاهُ بِكِرَاءٍ معلوم . وربَّما أكْرَوْا أولادَهُم مِمَّن يَمْضِى إلَى إفريقِيَّة، فيسألُ بِهِمُ الطَّريقَ أجْمَعَ ، بالمالِ العظيمِ . فإنْ كانَ ثِقةً مَلِيئًا ، وإلاَّ أقامَ بالأولادِ والأجْرَةِ

---

(١) الغَلَق : ما يغلق به الباب ، والمقصود بسله انتزاعه وإخراجه من موضعه ليفتح الباب .

(٢) أعْسَمَ : يبس فى مفصل الرسغ تعوج منه اليد والقدم . (٣) الأعْضَدُ : الدقيق العضد ومن كانت إحدى عضديته قصيرة .

كَفِيلًا .

والعَوَّاءُ الَّذِى يسْأَلُ بينَ المَغْرِب والعِشَاء . وربَّما طَرَّبَ ، إنْ كانَ له صَوْتٌ حَسَنٌ ، وحَلْقٌ شَجِىٌّ .

والإسْطِيلُ هُوَ المُتَعَامِى : إنْ شَاء أَرَاكَ أَنَّهُ مُنْخَسِفُ العَيْنَين ، وإنْ شَاءَ أراكَ أنَّ بهمَا ماءً ، وإنْ شَاءَ أراكَ أنَّه لا يُبْصِرُ ، لِلْخَسْفِ ، ولِرِيح السَّبَل[1] .

والمَزِيدىُّ الَّذِى يَدُورُ وَمَعَهُ الدُّرَيْهِمَاتُ ، ويقولُ : هذه دراهِمُ قد جُمِعَتْ لِى فى ثمنِ قَطِيفةٍ . فَزِيدُونى فيهَا ، رحمكم الله ! وربَّما احْتمَلَ صبيًّا علَى أنَّه لَقِيطٌ . وربَّما طَلَبَ فى الكَفَنِ .

والمسْتَعرِضُ الَّذى يُعارضُكَ ، وهو ذُو هَيْئَةٍ ، وفى ثيابٍ صَالِحةٍ . وكأنَّه قد هَابَ منَ الحياءِ ، ويخافُ أَنْ يَرَاهُ مَعْرِفةٌ ! ثم يَعْتَرِضُكَ اعتراضًا ، ويكَلِّمُكَ خَفِيًّا .

والمُعَدِّسُ الَّذِى يَقِفُ علَى الميِّتِ يَسْأَلُ فى كَفَنِهِ ، ويقِفُ فِى طريقِ مَكَّةَ على الحمارِ الميِّتِ ، والبَعِيرِ الميِّتِ ، يدَّعِى أنَّه كانَ لَهُ ، ويَزْعُمُ أنَّه قدْ أُحْصِرَ؛ وقدْ تعلَّم لغةَ الخُرَاسَانِيَّةِ واليَمَانِيَّةِ والإفْرِيقِيَّةِ ، وتعرَّفَ تلكَ المُدُنَ والسِّكَكَ والرجالَ . وهو متَى شاءَ كانَ مِنْ إفْرِيقِيَّةَ ، ومتى شاء كانَ منْ أهلِ فَرْغَانَةَ[2] ، ومَتى شاء كانَ مِنْ أىِّ مَخَالِيفِ[3] اليَمَنِ شاءَ !

والمُكْدِى صَاحِبُ الكِدَاء .

والكَعْبِىُّ أُضِيفَ إلَى أبِى كعبٍ المَوْصِلِىِّ ، وكانَ عَرِيفَهُمْ بعدَ خَالَوَيْهِ سنَةً على ماءٍ .

والزكورى هُو خُبْزُ الصَّدَقَةِ ، كانَ علَى سَجْنَى أو علَى سَائِلٍ .

هذَا تفسيرُ ما ذَكَرَ خَالَوَيْهِ فقط . وهُم أضْعَافُ ما ذكرنَا فى العَدَدِ . ولم يكنْ يَجُوزُ أنْ نتكلَّفَ شيئًا ليسَ منَ الكتَّابِ فى شىءٍ .

(من مواقف البخلاء)

رَفَعَ يَحْيَى بنِ خالدِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ الله بنِ خالدِ بنِ أُسَيْدٍ ، رَغِيفًا مِن خُوانِهِ بيدِهِ ، ثم رَطَلَه ، والقومُ يأكلونَ . ثم قال : يَزْعُمُون أَنَّ خُبْزِى صِغَارٌ . أىُّ ابنِ ... يَأْكُلُ من هذا الخُبْزِ رغيفَين[4]؟

وكنتُ أنَا وأبُو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ سَيَّارٍ النَّظَّامُ ، وقُطْرُبٌ النَّحْوىُّ ، وأَبوالفَتْح مُؤَدِّبُ مَنْصُورِ بن زيادٍ ، علَى خُوان فُلانِ بنِ فُلانٍ . والخُوانُ منْ جَزْعَةٍ . والغَضَارُ[5] صِينىٌّ مُلْمَعٌ ، أو خَلَنْجِيَّةٌ[6] كَيْمَاكِيَّةٌ[7] . والألْوانُ طَيِّبَةٌ شَهِيَّةٌ ، وَغَذِيَّةٌ قَدِيَّةٌ . وكلُّ رغيفٍ فى بَياضِ الفضَّةِ ، كأنَّه البَدْرُ ، وكأنَّه

---

(١) السَّبَل : داء فى العين شبه غشاوة كأنها نسج العنكبوت .

(٢) فَرْغَانة : بلد من بلاد العجم . بينها وبين سمرقند ثلاثة وخمسون فرسخاً .

(٣) مَخَاليف : جمع مخلاف ، وهى المدينة والصقع . (٤) انظر العقد الفريد (٦/ ١٤٠) .

(٥) الْغَضَار : طين يتخذ منه الخزف ، والصينى أجوده . (٦) خَلَنْجِيَّة : نسبة إلى خلنج ، شجر يتخذ منه الأوانى .

(٧) كَيْمَاكِيَّة : نسبة إلى كيماك ، وهى ولاية واسعة فى حدود الصين .

مِرْآةٌ مَجْلُوَّةٌ . ولكنَّه علَى قَدْرِ عددِ الرُّءوسِ .

فأَكَلَ كلُّ إنسانٍ رغيفَهُ إلاَّ كِسرةً . ولم يَشْبَعُوا فيرفَعُوا أيْديَهم . ولم يُغَذُّوْا بشيءٍ فَيَتِمُّوا أكْلَهُمْ . والأَيْدِى مُعَلَّقةٌ . وإنَّما هُمْ فى تَنْقِيرٍ وتَنْتِيفٍ !

فلمَّا طَالَ ذلكَ عليهمْ ، أقبلَ الرجلُ علَى أبى الفَتحِ ، وتحتَ القَصْعَةِ رُقَاقةٌ ، فقالَ : يا أبا الفَتْحِ ، خُذْ ذلكَ الرغيفَ فقطِّعْه وقسِّمهُ علَى أصحابِنَا . فتغافَلَ أبو الفتْحِ . فلمَّا أعادَ عليه القولَ الرابعةَ قالَ : ما لَكَ - وَيْلَكَ ! - لا تُقَطِّعُهُ بينهُم ؟ قَطَّع الله أوْصَالكَ ! قالَ : يُبْتَلَى على يَدَىْ غَيْرِى، أصلحكَ اللهُ ! فخجَّلْناهُ مرةً ، وضَحِكْنا مَرَّةً ، وما ضحِكْنا صَاحِبَنَا ولا خَجِل .

وزُرْتهُ أنَا والمكِّىُّ . وكنتُ أنَا علَى حمارٍ مُكَارٍ ، والمكىُّ علَى حمارٍ مُسْتعارٍ. فصارَ الحمارُ إلَى أسْوَأَ ، مِنْ حالِ المِذْوَدِ[1] ! فَكَلَّم المكىُّ غِلمانَه ، فقالَ : لا أريدُ منكُم النِّبْنَ فمَا فَوْقَهُ .

اسْقُوهُ ماءً فقط . فَسَقَوْهُ ماءَ بئرٍ ، فلمْ يشربْه الحمارُ ، وقدْ مَاتَ عَطَشًا.

فأَقْبَلَ المكِّىُّ عليهِ ، فقالَ : أصْلَحَكَ الله ! إنَّهُم يَسقُونَ حِمارِى ماءَ بِئْرٍ، ومَنْزِلُ صاحِبِ الحِمار علَى شارعِ دِجْلَةَ ، فهوَ لا يَعْرِفُ إلاَّ العَذْبَ . قالَ : فامْزُجُوه لهُ يا غُلام ! فمزَجُوه فلم يَشْربْه . فأعادَ المسألةَ ، فأمَكنَهُ مِن أذُنِ مَنْ لاَ يسمعُ إلاَّ ما يَشْتهِى .

وقالَ لِى مرَّةً : يا أخِى ، إنَّ ناسًا منَ الناسِ يَغْمِسون اللُّقْمةَ إلَى أضْبارِهَا[2] فى المُرِّىِّ[3] . فأقولُ : هؤلاءِ قومٌ يُحِبُّونَ المُلُوحَةَ ، ولا يحِبّونَ الحَامِضَ ! فما أَلْبَثُ أن أرَى أحدَهُم يأخذُ حَرْفَ الجَرْدَقَةِ[4] ، فيغمِسُها فى الخلِّ الحاذِقِ ، ويُغْرِقُها فيهِ ! وربَّما رأيتُ أحدَهم يُمْسِكها فى الخلِّ بعدَ التَّفْرِيقِ ساعةً ، فأقولُ : هؤلاءِ قومٌ يَجْمَعُون حُبَّ الحُمُوضَةِ إلَى حُبِّ المُلُوحةِ. ثم لاَ ألْبَثُ أنْ أَراهُم يَصْنَعونَ مِثلَ ذلكَ بالَخْردَلِ ، والخردلُ لا يُرامُ! قُلْ لى : أىُّ شىءٍ طَبَائِعُ هؤلاَءِ؟ وأىُّ ضَرْبٍ هُمْ ؟ وما دَواؤُهُم ؟ وأىُّ شىءٍ عِلاجُهُم ؟

فلمَّا رأيتُ مَذهَبَه وحُمْقَه ، وغَلَبَةَ البُخْلِ عليه ، وقَهْرَهُ لَه ، قلتُ : ما لَهم عِنْدى علاجٌ هُو أنْجَعُ فيهم مِنْ أنْ يُمْنَعُوا الصِّباغَ كلَّه ! قالَ : لا واللهِ ، إنْ هُو غَيْرُهُ !

(من أحاديث البخلاء)

وصَدِيقٌ كنَّا قَدِ ابْتُلِينا بمُؤَاكَلتِه . وقدْ كانَ ظنَّ أنَّا قدْ عَرَفْناه بالبخلِ علَى الطَّعامِ . وهَجَسَ ذلكَ فى نفسهِ . وتوهَّم أنَّا قدْ تذاكَرْنَا أمْرَه . فكانَ يتزيَّدُ فى تكْثيرِ الطَّعامِ ، وفى إظْهارِ الحِرْصِ علَى أَنْ يُؤكَلَ . حتَّى قالَ : مَنْ رَفَعَ يدَه قَبْلَ القَوْمِ غرَّمناهُ دينارًا . فترَى بُغْضَه إنْ غَرَّمَ دينارًا . وظاهرُ لائِمَتِه

---

(١) المِذْوَد : معلف الدابة .

(٢) أضبارها : جميع نواحيها . يقال : أخذ الشىء بأضباره : أى تامًا بأجمعه .

(٣) المُرِّىّ : هو الذى يؤتدم به ، وهو ما يسمى الآن «السلطة» .

(٤) الجَرْدَقَة : الرغيف ، كما سبق أن ذكرنا .

مُحْتَمَلٌ فى رِضَا قَلْبِهِ ، وما يَرْجُو منْ نفعِ ذلكَ له .

ولقدْ خَبَّرنى خَبَّازٌ لبعضِ أصْحابنَا ، أنَّه جَلَدَهُ علَى إنْضَاجِ الخُبْزِ ، وأنَّه قال لهُ : أَنْضِجْ خُبْزِى الذى يُوضَعُ بَيْنَ يدىَّ ، واجْعلْ خُبزَ مَنْ يأكلُ مَعِى على مِقْدَارِ بَيْنَ المقدارين[1] . وأمَّا خُبْزُ العيالِ والضَّيفِ فلا تُقَرِّبَنَّه منَ النَّارِ إلاَّ بقَدْرِ ما يصيرُ العَجينُ رغيفًا ، وبقَدْر ما يتماسكُ فَقَطْ ! فكلَّفَه العَويصَ . فلمّا أعجزَه ذلكَ ، جَلدَهُ حَدَّ الزَّانى الحُرِّ[2] !

فحدَّثتُ بهذَا الحديثِ عَبْدَ الله العَرُوضِىَّ ، فقالَ : أَلَمْ تعرفْ شَأْنَ الجَدْى ؟ ضَرَبَ الشَّوَّاءَ ثمانينَ سَوْطًا لِمَكَانِ الإنْضاجِ ! وذلكَ أنَّه قالَ لهُ : ضَعِ الجَدْىَ فى التَّنُّورِ حينَ تضعُ الخُوانَ ، حتَى أَسْتَبطِئَكَ أنَا فى إنْضاجِهِ . وتقولُ أنتَ : بَقِىَ قليلٌ ! ثم تجيئُنا به ، وكأنِّى قد أعْجَلْتُك ! فإذا وُضِعَ بينَ أَيْديهِم غَيْرَ مُنْضَجٍ ، احْتَسَبْتُ عليهمْ بإحْضَارِ الجَدْى . فإذَا لم يَأْكُلُوه أَعَدْتَه إلى التَّنُّورِ ، ثم أَحْضَرْتَنَاه الغَدَ باردًا . فيقومُ الجَدْىُ الواحدُ مَقَامَ جَدْيَيْن !

فجاءَ به الشَّوَّاءُ يومًا نَضيجًا ، فعَمِل فيهِ القومُ . فَجَلَدهَ ثمانين جَلْدةً ، جَلْدَ القَاذف الحُرِّ[3] !

وحدَّثَنِى أحمدُ بنُ المُثَنَّى عنْ صَدِيق لِى ولَه ، ضَخْمِ البَدَن ، كثِير العِلْم، فاشِى الغَلَّة ، عظِيم الوِلايَاتِ ، أنَّه إذا دعَا علَى مائدتِه بفَضْلِ دَجَاجَةٍ ، أو بِفَضْل رُقَاقٍ ، أو غيْر ذلكَ ، رَدَّ الخادمَ مَعَ الخَبَّاز إلى القَهْرَمَانِ[4] ، حتى يَصُكَّ له بذلكَ إلَى صاحبِ المَطْبَخ !

ولقد رأيتُه مرّةً وقدْ تناولَ دَجاجةً ، فشقَّها نِصفَين ، فألقَى نصْفَهَا إلى الَّذى عَنْ يَمينه ، ونِصْفَها إلَى الَّذِي عنِ شمالِهِ . ثم قالَ : يا غُلامُ ! جِئْنِى بواحدة رَخْصةٍ ، فإنَّ هذه كانتْ عَضِلةً جدًّا . فَحسِبْتُ أنَّ أَقَلَّ ما عِنْدَ الرَّجلين ألاّ يَعُودَا إلى مائدتِه أبدًا . فوجدتُهما قد فَخَرا علىَّ بما حَبَاهُما به منْ ذلكَ دُونِى !

وكانُوا ربَّما خَصُّوهُ ، فوضَعُوا بين يَدَيْه الدُّرَّاجةَ[5] السَّمينَة ، والدَّجاجةَ الرَّخْصَةَ . فانْطَفَأَتِ الشمعةُ فى ليلةٍ منْ تلكَ الليالى . فأغَارَ عَلِىٌّ الأَسْوَارِىُّ على بَعْضِ ما بَيْن يَدَيْه ، واغتنمَ الظُّلْمَةَ . وعَمِلَ علَى أنَّ الليلَ أَخْفَى للْوَيْلِ[6] ! فَفَطِنَ لهُ ، وما هُو بالفَطِن إلاَّ فى هذَا البابِ . وقال : كذلكَ الملوكُ كانتْ لا تأكُل مع السُّوقَةِ !

وحدَّثنى أحمدُ بنُ المُثَنَّى أنَّهم كانوا يَعْمِدُون إلى الجَرَادِق التى تُرْفَعُ عنْ مائِدته : فما كان منْها مُلَطَّخًا ، دُلِكَ دَلْكا شَديدًا ، وما كانَ منها قدْ ذَهَبَ جانِبٌ منه ، قُطِعَ بسكينٍ منْ ترابيع[7] الرَّغيفِ

---

(١) بين المقدارين : حال وسط .

(٢) الحُرّ : هو غير العبد حيث يجلد مائة جلدة إن كان غير محصن : أى غير متزوج ، وأما العبد فيجلد خمسين جلدة .

(٣) القاذف الحُرّ : هو الذى يقذف المتزوج أو المتزوجة : أى يرميه أو يرميها بالفاحشة ، والعبد يجلد فى ذلك أربعين جلدة .

(٤) القَهْرَمَان : هو أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه . (٥) الدُّرّاجة : نوع من الطير .

(٦) الليل أخفى للويل : مثل يضرب للعمل فى الخفاء . (٧) ترابيع الرغيف : أى أقسامه الأربعة .

مِثْلُ ذلكَ ، لئلاَّ يَشُكَّ مَنْ رآه أنَّهم قدْ تعمَّدُوا ذلكَ . وما كَانَ منَ الأَنْصَافِ والأَرْباعِ جُعِل بَعْضُه للثَّرِيدِ ، وقُطِعَ بعضُه كالأصابعِ ، وجُعلَ مَعَ بَعْض القَلاَيَا[1] .

(ثريدته بلقاء)

ولقدْ رأيتُ رجلًا ضَخْمًا ، فَخْمَ اللفْظِ ، فَخْمَ المعَانى ، تَرْبِيَةٌ فى ظِلِّ مَلِك؛ معَ عُلُوٍّ هَمٍّ ، ولسَانِ غَضْبٍ[2] ، ومَعْرِفَةٍ بالغامِضِ منَ العُيوبِ ، والدَّقِيق منَ المحاسِنِ؛ معَ شِدَّة تَسَرُّعٍ إلى أعْراضِ النَّاسِ ، وضِيقِ صَدْرٍ بما تعرَّفَ من عُيُوبِهم .

وإنَّ ثَرِيدَتَهُ لَبَلْقاءَ ، إلاَّ أنَّ بَيَاضَها ناصِعٌ ، ولَوْنَها الآخَرَ أصْهبُ[3] ! ما رأيتُ ذلكَ مرةً ولا مَرَّتين .

وكنتُ قدْ هَمَمْتُ قبلَ ذلكَ أَن أعاتِبَهُ علَى الشيء يَسْتأثِرُ بهْ ، ويَخْتصُّ بهِ ، وأنْ أحْتَمِلَ ثِقَلَ تلكَ النَّصيحةِ وَبَشَاعَتَها ، فى حَظِّهِ وفى النظرِ له . ورأيتُ أنَّ ذلكَ لا يكونُ إلاَّ مِنْ حَاقِّ الإخْلاصِ ، ومنْ فَرْطِ الإخاءِ مِن الإخْوانِ . فلما رأيتُ البُلْقَةَ هَانَ عَلَيَّ التَّحْجِيلُ والغُرَّة . ورأيتُ أنَّ تركَ الكلامِ أفْضَلُ ، وأنَّ المَوْعِظة لَغْوٌ .

وقدْ زَعَمَ أبُو الحَسَن المَدائنىُّ أنَّ ثَرِيدةَ مَالِكِ بن المُنْذِر كانتْ بَلْقَاءَ . ولعلَّ ذلك أنْ يكونَ باطِلًا . وأمَّا أنَا فقدْ رأيت بِعَيْنَىَّ مِنْ هذا الرَّجلِ ما لا أخبِرُك به ، وهوُ شَيْءٌ لم أرهُ إلاَّ فيه ، ولا سمعتُ به فى غيرهِ .

ولسنَا مِنْ تَسْمية الأَصْحَابِ المتَهتِّكينَ ، ولا غيرهم من المَسْتُورِينَ فى شيءٍ . أمَّا الصاحبُ فإنَّا لا نُسَمِّيه لحُرْمَتِه ، وواجبِ حَقِّه . والآخَرُ لا نسمِّيه ليَسْتُرَ اللهُ عليهِ ، ولِمَا يجب لِمَنْ كانَ فى مِثل حالهِ . وإنَّما نُسمِّى مَنْ خَرَجَ منْ هاتينِ الحالَيْن . ولربَّما سمَّينَا الصاحبَ إذا كان مِمَّنْ يُمَازِحُ بهذَا ، ورأيناهُ يتظرَّفُ ، ويجعلُ ذلكَ الظَّرْفَ سُلَّما إلَى مَنْعِ شَيْنِهِ[4] .

(قِصَّةُ أبى جَعْفَرٍ)

ولم أرَ مثلَ أبى جَعْفَرٍ الطَّرَسُوسِىِّ : زارَ قومًا فأكرمُوهُ وطيَّبُوهُ ، وجعلُوا فى شارِبِه وسَبَلَتِهِ[5] غالِيةً . فحَكَّتْه شَفَتُه العُلْيا ، فأَدْخَلَ إصْبَعهُ فحكَّها مِنْ باطِنِ الشَّفةِ ، مَخافةَ أنْ تأْخُذَ إصْبَعُهُ منَ الغالِيةِ شيئًا ، إذَا حكَّها مِنْ فَوْقُ !

وهذَا وشِبْهُهُ إنَّما يَطِيبُ جدًّا إذَا رأيتَ الحِكايةَ بعْينِكَ ، لأنَّ الكِتَّابَ لا يُصَوِّر لكَ كلَّ شَيْءٍ ،

---

(١) القَلاَيَا : جمع قلية ، مرقة تتخذ من لحوم الإبل وأكبادها .

(٢) غضب : يريد أنه فصيح له تأثيره .

(٣) أصهب : كلون الشعر المحمر .

(٤) شَيْنه : العيب ، والمقصود أنه يجعل ذلك التظرف وسيلة إلي ستر بخله الذى يعيبه .

(٥) سَبَلَتِه : طرف الشارب من الشعر ومقدم اللحية ، والغالية نوع من الطيب .

ولا يأتى لكَ على كُنْهِهِ ، وعلَى حُدودِهِ وحَقائِقِهِ .

(قِصَّةُ الحِزَامىّ)

وأما أبو مُحمَّدٍ الحِزامِيُّ ، عبدُ الله بنُ كاسِبٍ ، كاتبُ مُوَيْسٍ ، وكاتِبُ دَاوُدَ بنِ أبِى دَاوُدَ ، فإنَّه كانَ أبخَلَ مَنْ بَرَأَ اللهُ ، وأطْيَبَ مَنْ برأَ اللهُ . وكانَ لَهُ فى البُخْل كلامٌ . وهو أحَدُ مَنْ يَنْصُرهُ ويُفَضِّلُه ، ويَحْتجُّ لهُ ، ويَدْعُو إلَيْهِ .

وَإنَّه رآنِي مَرَّةً فى تَشْرِينَ الأوَّلِ ، وقد بَكَّرَ البردُ شيئًا . فلَبِسْتُ كِساءً لى قومِسِيًّا[1] خفيفًا ، قدْ نيل منهُ . فقالَ لِى : ما أقْبَحَ السَّرَفَ بالعاقلِ ، وأسْمَجَ الجهلَ بالحكِيم ! ما ظننتُ أنَّ إهمالَ النَّفْسِ وَسُوءَ السِّياسةِ بَلَغَ بكَ ما أرَى !

قلتُ : وأىَّ شَىءٍ أنكرتَ مِنَّا مُذِ اليوم ؟ وما كانَ هذا قولَك فينَا بالأمْسِ . فقالَ : لُبْسَكَ هذَا الكِساءَ قَبْلَ أوانِهِ . قلتُ : قد حَدَثَ منْ البَرْدِ بمقداره. ولوْ كانَ هذا البردُ الحادثُ فى تَمُّوزَ وآبَ لكانَ إبَّانًا لهذَا الكسَاءِ . قالَ : إنْ كانَ ذلكَ كذلكَ ، فاجعلْ بَدَلَ هذهِ المُبَطَّنةِ جُبَّةً مَحْشُوَّةً ؛ فإنَّها تَقُومُ هذَا المَقَامَ ، وتكونُ قدْ خَرَجْتَ منَ الخَطَإِ . فأمَّا لُبْسُ الصُّوفِ اليومَ ، فهوَ اليومَ غَيْرُ جائزٍ .

قلتُ : ولِمَ ؟ قالَ : لأنَّ غُبَار آخِرِ الصيفِ يَتَداخَلُه ، ويَسْكُنُ فى خَلَلِهِ . فإذَا أُمْطِرَ الناسُ ، ونَدِىَ الهواءُ ، وابْتَلَّ كلُّ شىْءٍ، ابْتَلَّ ذلكَ الغُبارُ . وإنَّما الغبارُ ترابٌ ، إلاَّ أنَّه لُبَابُ التُّرابِ . وهو مَالِحٌ ، ويتقبَّضُ عندَ ذلكَ عليه الكِساء وَيَتَكرَّشُ ؛ لأنَّه صُوفٌ ، فينْضَمُّ أجْزاؤُه علَيه ، فيأكلُه أكْلَ القادِحِ ، ويَعْمَلُ فيه عَمَلَ السُّوسِ . ولَهُوَ أسْرَعُ فيهِ منَ الأَرَضَةِ فى الجُذُوعِ النَّجْرانيَّةِ[2] !

ولكنْ أخِّرْ لُبْسَه ؛ حتَّى إذَا أمطِرَ الناسُ ، وسَكنَ الغُبَار ، وتلبَّد التُّرابُ ، وَحَطَّ المطرُ ما كانَ فى الهواءِ مِنَ الغُبارِ ، وغَسَلَهُ وصفَّاهُ ، فالبَسْهُ حينئذٍ علَى بَرَكةِ اللهِ!

وكانَ يَقَعُ إلى عِيالِه بالكُوفةِ كلَّ سنةٍ مَرَّةً ، فيشترِى لهُمْ منَ الحَبِّ مِقْدارَ طَبيخِهم ، وقُوتِ سَنَتِهم . فإذَا نَظَرَ إلَى حَبِّ هذَا ، وإلى حبِّ هذا ، وقَامَ على سِعْرٍ ، اكتالَ مِنْ كلِّ واحدٍ منهَا كِيلةً مَعْلُومةً ، (ثُم وزَنَها) بالميزانِ ، واشتَرَى أثقَلَها وَزْنًا .

وكانَ لا يَخْتارُ علِى البَلَدىِّ والمَوْصِلىِّ شيئًا ، إلاَّ أنْ يتقاربَ السِّعْرُ . وكانَ على كلِّ حالٍ يَفِرُّ من المَيْسَانِىِّ[3] ، إلا أنْ يُضْطَرَّ إليهِ ، ويقولُ : هو ناعمٌ ضَعِيفٌ ، ونارُ المَعِدة شيطانٌ ! فإنّما يَنبَغى لَنا أن نَطْعَمَ الحَجَرَ وما أشْبَهَ الحَجَرَ !

وقلتُ له مرّةً : أَعِلمتَ أنَّ خُبزَ البَلَدِىِّ يَنْبُتُ عليه شىءٌ شبيهٌ بالطِّين والتّراب والغُبارِ المُتَراكِمِ ؟

---

(١) قومِسِيًّا : من صناعة قومس التى تقع بين خراسان وبلاد الجليل .

(٢) النَّجْرانيّة : نسبة إلى نجران ، وهى موضع باليمن ، والظاهر أن جذوع شجرها كانت سهلاً على تلك السوسة التى تأكل الخشب .

(٣) المَيْسَانى : نسبة إلى ميسان بالعراق .

قال : حبَّذا ذلك مِنْ خُبزٍ ! وليتَه قد أشْبَهَ الأرضَ بأكْثَرَ منْ هذا المِقْدَارِ !

وكانَ إذَا كانَ جَدِيدَ القَميصِ ومَغْسُولَه ، ثم أتَوْهُ بكلِّ بَخُورٍ فى الأرضِ ، لم يتبخَّرْ ، مخافةَ أنْ يُسَوِّد دُخانُ العُودِ بياضَ قميصِهِ . فإنِ اتَّسخَ فأتِىَ بالبَخُورِ ، لم يرضَ بالتَّبخُّر واستِقْصاءِ ما فى العُودِ من القُتَارِ[1] ، حتَّى يَدْعُوَ بدُهْنٍ ، فَيَمْسَحَ به صدْرَه وبَطنَه وداخلَةَ إزَارِه ، ثم يتبخَّرُ ، ليكونَ أعْلَقَ للبَخُورِ !

(من أقوال الحِزَامِىّ)

وكانَ يقولُ : حبَّذا الشِّتاءُ ، فإنَّه يَحْفَظُ عليكَ رائحةَ البَخُورِ ، ولا يَحْمُضُ فيه النبيذُ إنْ تُرِك مفتوحًا ، ولا يَفْسُد فيه مَرَقٌ إنْ بَقِىَ أيَّامًا .

وكانَ لا يَتَبَخَّرُ إلاَّ فى منازلِ أصحابِه . فإذَا كانَ فى الصَّيْفِ ، دعَا بثيابِه فَلَبِسَها علَى قميصِهِ ، لكيلا يضيعَ منَ البَخُور شىءٌ .

وقالَ مَرَّةً : إنَّ للشَّيْب سُهَكَةً[2] . وبياضُ الشَّعر هو مَوْتُه ، وسوادُه حياتهُ : ألا تَرَى أنه مَوْضِعَ دَبَرةِ الحمارِ الأسْوَدِ لا يُنْبِتُ إلا أبْيَضَ ! والناسُ لا يَرْضَوْن مِنَّا فى هذا العَسْكَر إلاَّ بالعِنَاقِ واللِّثام ، والطِّيبُ غَالٍ ، وعادتُه رديئة ! وينبغى لِمَنْ كان أيْضًا عِنْدَه أنْ يَحْرُسَه ويَحْفَظَه مِنْ عيالِهِ . وإنَّ العَطَّار لَيَخْتِمُهُ على أخصِّ غِلْمانِه به .

فلستُ أرَى شيئًا هُو خَيْرٌ مِنَ اتِّخاذ مُشْطِ صَنْدَلٍ[3] ؛ فإنَّ رِيحَه طيِّبةٌ . والشَّعْرُ سريعُ القَبُولِ منهُ! وأقلُّ ما يَصْنَعُ أنْ يَنْفىَ سَهَكَ الشَّيْبِ[4] . فِصرْنَا فى حالٍ لَنَا ولا عَلَيْنا .

فكانَ عِطْرُ الحزامىِّ إلَى أنْ فَارَقَ الدنْيا مُشْطَ صَندَلٍ ، إلاَّ أن يُطَيِّبه صديقٌ .

واستلفَ منه عَلِىٌّ الأسْوارِىُّ مائة دِرْهم . فجاءَنى وهو حَزِينٌ مُنْكَسِرٌ . فقلتُ له : إنَّما يَحْزَنُ مَنْ لا يجِدُ بُدًّا مِنْ إسْلافِ الصَّدِيقِ ، مَخَافَةَ ألاَّ يَرْجِعَ إليه مَالُهُ ، ولا يَعُدُّ ذلك هِبَةً منه ؛ أو رجلٌ يخافُ الشَّكِيَّة ، فهُو إنْ لم يُسْلِفْ كَرَمًا ، أسْلَفَ خَوْفًا . وهذا بابٌ ، الشُّهْرةُ فيه قُرَّةُ عَيْنِكَ . وأنَا واثِقٌ باعتزامِكَ وتَصْمِيمِكَ ، وبِقِلَّة المُبالاةِ بتَبْخيلِ النَّاسِ لكَ . فما وَجْهُ انْكِسارِكَ واغْتمامِك ؟

قالَ : اللَّهُمَّ غَفْرًا[5] ! ليسَ ذاكَ بِى . إنَّما فىَّ أنِّى قدْ كُنْتُ أظُنُّ أنَّ أطْمَاعَ الناسِ قدْ صارتْ بِمَعْزِلٍ عنِّى ، وآيسةً مِنِّي ، وأنِّى قد أحْكَمْتُ هذا البابَ وأتقَنْتُه ، وأودعتُ قلوبَهُمُ اليأسَ ، وقطعتُ أسبابَ الخواطِرِ . فأرانِي واحدًا منهُم ! إنَّ منْ أسباب إفلاسِ المرءِ طَمَعَ الناسِ فيه ؛ لأنَّهُمْ إذَا طمِعُوا فيه

---

(١) القُتَار : الدخان ذو الرائحة الخاصة ينبعث من الطبخ أو الشواءأو العظم المحروق أو البخور .

(٢) سُهَكة : الرائحة الكريهة . يقال إن الشيب والهرم يحدثان فى الجسم هذه الرائحة .

(٣) صَنْدَل : نوع من الخشب .

(٤) السهك : ريح كريهة تأتى من العرق .

(٥) اللهم غَفْرًا : عبارة للتعجب من عدم فهم مخاطبة ما يريده .

احتَالُوا له الحِيَل ، ونَصَبُوا له الشَّرَكَ . وإذَا يئِسُوا منهُ فقدْ أمِنَ . وهذَا المَذْهَبُ مِنْ علىٍّ استضعافٌ شديدٌ . وما أشُكُّ أنَّى عندَه غُمْرٌ ، وأنِّي كبعضِ مَنْ يأكلُ مالَه ، وهو معَ هذا خَلِيطٌ وعَشِيرٌ .

وإذَا كانَ مِثْلُهُ لم يَعْرِفْنِى ، ولم يتَقَرَّرْ عندهُ مذهَبى ، فما ظَنُّك بالجيرانِ؟ بلْ ما ظَنُّك بالمعارِفِ ؟ أُرانِى أنْفُخُ فى غير فَحْمٍ ، وأَقْدَحُ بِزَنْدٍ مُصْلِد ! ما أخْوَفَنِى أنْ أكونَ قد قُصِدَ إلىَّ بقَوْلٍ ! ما أخْوَفَنِى أنْ يكونَ اللهُ فى سمائِه قدْ قَصَدَ إلَى أنْ يُفْقِرنِى !

قالَ : ويقولونَ : ثوبُك علَى صاحِبِكَ أحْسَنُ مِنْه عليكَ ! فمَا يقولُون إنْ كانَ أقصَرَ مِنِّى ؟ أليس يَتَخَيَّلُ فى قَمِيصِى ؟ وإنْ كانَ طويلًا جدًّا ، وأنا قَصيرٌ جدًّا فَلَبِسَهُ ، أليس يَصِير آيةً للسَّائِلِينَ[1] ؟ فَمَنْ أسْوَأُ أثَرًا على صَدِيقِه مِمَّنْ جَعَلَه ضُحْكَةً للناسِ ؟ ما ينبغِى لِي أنْ أكسُوَهُ حتَى أعْلَمَ أنَّه فيه مِثْلى . ومتى يتَّفِقُ هذَا ، وإلَى ذلكَ مَحْى ومَمَاتٌ ؟[2]

وكانَ يقولُ : أَشْتَهِى اللحمَ الذى قَد تَهَرَّأَ[3] ، وَأشتَهِى أيضًا الذى فيه بعْضُ الصَّلابَةِ .

وقلتُ لهُ مرَّةً : ما أَشْبَهَكَ بالَّذى قالَ : أَشْتَهِى لَحْمَ دَجَاجَتينِ . قالَ : وما تَصنعُ بذلكَ القائلِ ؟ هُو ذَا أنا أَشْتهِى لحمَ دَجاجتيْنِ ، واحدةٍ خِلاسِيَّةٍ[4] مُسَمَّنةٍ ، وأخْرَى خَوامزكه رَخْصَةٍ .

(رضاؤه بالبخل)

وقلتُ له مَرةً : قد رَضِيتَ بأن يُقالَ : عبدُ الله بخيلٌ ؟ قالَ : لا أعْدَمَنى اللهُ هذَا الاسمَ ! قلتُ : وكيفَ ؟ قالَ : لا يقالُ : فلانٌ بخيلٌ إلاَّ وهُو ذُو مالٍ. فسلِّمْ إلىَّ المالَ ، وادْعُنِى بأىِّ اسمٍ شئتَ ! قلتُ : ولا يقالُ أيضًا : فلانٌ سَخِىٌّ إلاَّ وَهُوَ ذُو مالٍ . فقدْ جَمَعَ هذا الاسمُ الحمدَ والمالَ ، واسمُ البُخْلِ يجمعُ المالَ والذمَّ . فقدْ أخذتَ أخَسَّهما وأوضَعَهما . قالَ : وبينهُما فَرْقٌ . قلتُ : فهاتِهِ . قالَ : فى قولِهم : بخيلٌ ، تَثْبيتٌ لإقامة المالِ فى مِلْكِه . وفى قولِهم : سَخِىٌّ ، إخْبارٌ عنْ خُروجِ المالِ مِن مِلْكه . واسمُ البخيل اسمٌ فيه حِفْظٌ وذَمٌّ ، واسْمُ السَّخِىِّ اسمٌ فيه تضييعٌ وحَمْدٌ . والمالُ زاهِرٌ نافِعٌ ، مُكْرِمٌ لأهلِه مُعِزٌّ . والحمدُ رِيحٌ وسُخْرِيَّةٌ ، واسْتِمَاعُك له ضَعْفٌ وفُسُولةٌ[5] . وما أقلَّ غَناءَ الحمد والله عنه ، إذا جاعَ بَطْنُه ، وعَرِىَ جِلْدُه ، وضاعَ عيالُه ، وشَمِتَ به مَنْ كان يَحْسُدهُ[6]!

(الحزامى يرفض الأخذ)

وكنَّا عِنْدَ دَاوُدَ بنِ أبِى دَاوُدَ بواسِطَ ، أيَّامَ وِلايَتِهِ كَسْكَرَ ! فأَتَتْه من البَصْرَة هَدَايا فيهَا زِقَاقُ دِبْسٍ[7] . فَقَسَمَها بيْنَنا . فكُلُّ ما أَخَذَ منها الحِزامىُّ أعْطَى غَيْرَه . فأنكرتُ ذلكَ مِن مَذْهَبِه ، ولم

(١) السابلون : الجماعة المختلفة فى الطرقات فى حوائجهم . (٢) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٤) .
(٣) تَهَرَّأ : نضج حتى سقط عن العظم . (٤) خِلاسِيَة : آتية من ديك هندى ، ودجاجة فارسية أو العكس .
(٥) فُسُولة : قلة المروءة وضعف الرأى . (٦) انظر العقد الفريد(٦/ ١٥٤) .
(٧) زِقَاق دِبْس : الزقاق جمع زق وهو ما يشبه السقاء ، وأما الدبس فهو عسل التمر .

أعرفْ جِهَةَ تَدْبيرِهِ . فقلتُ للمكىِّ : قدْ علمتُ أنَّ الجِزَامىَّ إنَّما يَجْزَعُ منَ الإعطاءِ ، وهو عَدُوُّهُ . فأمَّا الأخْذُ فهو ضَالَّتُه وأُمْنِيَّتُهُ ! وَإنَّه لو أعْطِىَ أَفَاعِىَ سِجِسْتانَ ، وثعابينَ مِصْرَ ، وحيَّاتِ الأَهْوَازِ ، لأَخَذَها ، إذَا كانَ اسْمُ الأَخْذِ واقِعًا عليهَا ! فعساهُ أرادَ التفضِيلَ فى القِسْمَة . قالَ : أنَا كاتبُه ، وصَدَاقَتى أَقْدَمُ . وما ذلكَ به . وإنَّ ها هُنا أَمْرًا ما نَقَعُ عليه .

فلمْ يلبثْ أنْ دخلَ علينَا . فسألتُه عنْ ذلكَ . فتعصَّر قليلًا . ثم بَاحَ بسرِّهِ . قالَ : وضيعَتُه أضْعَافُ رِبْحِهِ . وأَخْذُه عِنْدى مِنْ أسْبابِ الإدبارِ . قلتُ : أَوَّلُ وضائعِه احتمالُ السُّكْرِ . قالَ : هذَا لم يَخْطُرْ لى قَطُّ على بَالٍ . قلتُ : فهاتِ إذًا ما عِنْدكَ .

قالَ : أوَّلُ ذلكَ كِراء الحَمَّالِ . ثُم هُو علَى خَطَرٍ حتَّى يَصيرَ إلَى المنزلِ . فإذَا صارَ إلى المنزلِ ، صارَ سببًا لطلبِ العَصيدةِ والأُرْزِ والبِسْتَنْدُودِ[1] . فإنْ بعته فِرارا مِنْ هذَا صيَّرتُمُونى شُهْرةً ، وتركْتُمُونى عِنْدَهُ آيةً . وإنْ أنَا حَبَسْتُه ذَهبَ فى العَصائِد وأشْباهِ العَصَائِدِ . وَجَذَبَ ذلكَ شِرَاءَ السَّمْنِ ، ثم جَذَبَ السمنُ غيرَه ، وصارَ هذا الدِّبْسُ أضَرَّ علينَا من العِيَالِ .

وإنْ أنَا جعلتُه نَبِيذًا ، احتجتُ إلى كِرَاءِ القُدُورِ ، وإلَى شِراءِ الحُبِّ ، وإلَى شراءِ الماءِ ، وإلَى كِراءِ مَنْ يُوقِدُ تحتَه ، وإلَى التفرُّغِ له . فإنْ ولَّيتُ ذلكَ الخادِم اسودَّ ثَوْبُها ، وغَرِمْنَا ثَمَنَ الأُشْنانِ والصّابونِ ، وازدادتْ فى الطَّمَعِ ، علَى قَدْرِ الزيادِة فى العَمَلِ . فإنْ فسدَ ذهبتِ النَّفَقةُ باطلًا ، ولم نَسْتخلفْ منهَا عِوَضًا ، بوَجْهٍ من جَمِيعِ الوُجُوهِ . لأنَّ خَلَّ الداذِىِّ[2] يَخْضِبُ اللَّحمَ ، ويُغيِّر الطَّعمَ ، ويُسَوِّدُ المَرَقَ ، ولا يَصْلُحُ إلاَّ للاصْطِباغِ . وهذَا إذَا استحالَ خَلاً . وأكثَرُ ذلكَ أنْ يَحُولَ عن النَّبيذِ ، ولا يَصِيرَ إلى الخلِّ . وإن سَلِمَ - وأعوذُ باللَّهِ! - وجادَ وَصَفا ، لم نجدْ بُدًّا منْ شُربِهِ ، ولم تَطِبْ أَنْفُسُنا بِتَرْكِهِ.

فإنْ قعدتُ فى البيتِ أشْرَبُ منهُ ، لمْ يمكنْ إلاَّ بِتَرْك سُلافِ[3] الفارسىِّ المُعَسَّلِ، والدَّجاجِ المُسَمَّنِ ، وجِداءِ كَسْكَر ، وفاكِهَةِ الجَبَلِ ، والنُّقْلِ الهَشِّ[4] ، والرَّيْحانِ الغَضِّ ، عنْدَ مَنْ لا يَغِيضُ مالُه ، ولا تنقطِعُ مادَّتُه ، وعندَ منْ لاَ أبَالى عَلى أىِّ قُطْرَيْهِ سَقَطَ ؛ معَ فَوْتِ الحَديثِ المُؤْنِس ، والسَّماعِ الحَسَنِ .

وعلَى أنِّى إنْ جَلَسْتُ فى البيتِ أشْرَبهُ ، لم يكنْ لي بُدٌّ منْ واحدٍ . وذلكَ الواحدُ لابدَّ لهُ مِنْ دُرَيْهِم لَحْمٍ ، ومن طَسُّوجِ[5] نَقْلٍ ، وقِيراطٍ رَيْحان ؛ ومِنْ أبْزارٍ لِلقدْرِ ، ومن حَطَبٍ للوَقُودِ . وهذَا كُلُّه غُرْمٌ . وهو بعدَ هذَا شُؤْمٌ وحُرْفَةٌ . وخُرُوجٌ من العادةِ الحَسَنةِ .

---

(١) البِسْتَنْدُود : نوع من الفطير ، وهو فارسى .
(٢) الدَّاذِىُّ : شراب الفسّاق ، وهو الخمر . (٣) سلاف الفارسى : الخمر الفارسية .
(٤) الهَشّ : الطرى الناعم ؛ لأن الهش من كل شىء ما فيه رخاوة ولين .
(٥) طَسُّوج : هو ربع الدّانق ، والدانق سدس الدرهم .

فإنْ كانَ ذلكَ النديمُ غيرَ مُوَافِق ، فأَهْلُ الحبْسِ أحْسَنُ حالا منِّى . وإنْ كانَ - وأعُوذُ باللَّه! مُوافقًا ، فقدْ فَتَحَ اللَّه على مَالِى بابًا منَ التَّلفِ ؛ لأنَّه حينئذٍ يسيرُ فى مَالِى كَسَيْرِى فى مَال مَنْ هُوَ فَوْقِى .

وإذا عَلِم الصديقُ أنَّ عندِى دَاذِيًّا أو نَبِيذًا ، دَقَّ البابَ دقَّ المُدِلِّ . فإنْ حَجَبْناه فبلاءٌ ، وإنْ أدخلناهُ فَشَقَاءٌ . وإنْ بَدَا لِى فى اسْتِحْسَانِ حديثِ النَّاسِ كما يَسْتَحْسِنُ منِّى مَنْ أكُونُ عِنْدَهُ ، فقدْ شاركتُ المُسْرِفينَ ، وفارقتُ إخْوانِي مِنَ المُصْلِحينَ ، وصرتُ من إخْوانِ الشَّياطينِ .

فإذَا صِرْتُ كذلكَ ، فقدْ ذَهَبَ كَسْبِى منْ مالِ غَيْرِى ، وصارَ غَيْرِى يكْتَسِبُ منِّى . وأنَا لو ابْتُليتُ بأحَدِهِما لم أقُمْ له ، فكيفَ إذا ابْتُلِيتُ بأنْ أعْطِىَ ولا آخذَ ! أعوذُ باللَّهِ من الخِذْلانِ بعدَ العِصْمَةِ ، ومن الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ[1] ! لو كانَ هذا فى الحَدَاثةِ كانَ أهْوَنَ .

هذَا الدُّوشَابُ دَسِيسٌ منَ الحُرْفَةِ ، وكيدٌ من الشيطانِ ، وخُدْعَةٌ منَ الحسودِ ! وهو الحلاوةُ التى تُعْقِبُ المرارةَ ! ما أَخْوَفَنِى أنْ يكونَ أبو سُلَيْمانَ قدْ مَلَّ مُنَادَمَتِى ، فهو يَحْتَالُ لِى الحِيَلَ[2]!

(الحزامى أبخل أصحابنا)

وكنَّا مَرَّةً فى مَوْضعِ حِشْمَةٍ ،وفى جماعةٍ كثيرةٍ ، والقومُ سُكُوتٌ ، والمَجْلِسُ كبيرٌ ، وهُو بعيدُ المكانِ منِّى . وأقبلَ علىَّ المَكِّىُّ وقالَ ، والقومُ يسمعونَ ، فقال : يا أبا عُثْمان ، مَنْ أبْخَلُ أصحابِنا ؟ قلت : أبو الهُذَيْل . قالَ : ثُم مَنْ ؟ قلتُ : صاحبٌ لنا لا أسَمِّيه . قال الحِزامىُّ مِنْ بَعِيدٍ : إنّما يَعْنينى!

ثم قالَ : حَسَدْتُم للمُقْتَصِدين تَدْبيرَهُم ، ونَمَاءَ أمْوالِهم ، ودَوَامَ نِعْمَتِهم . فالْتَمسْتُمْ تَهْجِينَهمْ بهذا اللَّقَبِ ، وأدْخلتُم المَكْرَ عليهِم بهذَا النَّبْز . تَظْلِمونَ المُتْلِفَ لمالِه باسْم الجُودِ ، إدارة لهُ عن شَيْنه ، وتظلمونَ المُصْلِحَ لمالِه باسْم البُخْلِ ، حَسدًا منكُم لنعمتِهِ . فلاَ المفسِدُ ينجُو ، ولا المُصْلِحُ يَسْلَمُ .

(القسرى يعتذر عن الاتهام بالبخل)

قال أبو عُبَيْدةَ : بلَغ خَالِدَ بنَ عبدِ اللهِ القَسْرِىَّ[3] أنَّ الناسَ يَرمُونَه بالبُخْل على الطعامِ . فتكلَّم يومًا ، فما زالَ يُدْخِلُ كَلاَمًا فى كلامٍ ، حتى أدْخَلَ الاعْتِذَارَ من ذلكَ فى عُرْضِ كلامهِ . فكانَ ممَّا احْتَجَّ به فى شِدَّةِ رُؤْيةِ الأَكِيلِ عليهِ ، وفى نُفُورِه منه ، أنْ قالَ : نظرَ خَالدٌ المَهْزُولُ في الجاهليَّة يومًا إلى نَاسٍ يأكلونَ ، وإلى إبل تَجْتَرُّ . فقالَ لأصحابِه : أتَرَوْنى بِمِثْلِ هذه العَيْنِ التى أرَى بها الناسَ والإبِلَ ؟ قالوا : نعمْ . فحَلَف بإلهِهِ ألاَّ يأكلَ بَقْلاً ، وإنْ ماتَ هُزَالاً .

---

(١) الحور بعد الكور : أى النقص بعد الزيادة . (٢) انظر عيون الأخبار (٣/ ٢٧٣- ٢٧٥) .

(٣) خَالِد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القَسْرِى ، يمانى الأصل . أحد خطباء العرب وأجودهم . ولى مكة سنة ٨٩ هـ للوليد بن عبد الملك ثم ولاه هشام العراقين سنة ١٠٥هـ . وقد رمى بالزندقة فى عهد الوليد بن يزيد . الأعلام (٢/ ٢٩٧) .

وكان يَغْتَذِى اللبَنَ ، ويُصِيبُ مِنَ الشَّرابِ . فأَضْمَرَهُ ذلكَ وأَيْبَسَهُ . فلما دَقَّ جسمُه ، واشْتَدَّ هُزَالُه ، سُمِّىَ المَهْزُولَ . ثم قالَ خالدٌ : هأَنَذَا مُبْتَلىً بالمَضْغِ ، ومحمولٌ عَلى تَخريكِ اللَّحْيَيْن ، ومُضْطَرٌ إلَى مُناسبةِ البهائِم[1] ، ومُحْتَمِلٌ مَا فِي ذلكَ منَ السُّخْفِ والعَجْزِ. ما أبالِي! احتملتُه فيمنْ (ليسَ) لي منهُ بُدٌّ ، ولي عنهُ مَذْهَبٌ . ليأْكُلَ كلُّ امْرِئٍ فى منزلِهِ ، وفى مَوْضعِ أَمْنِه وأَنْسِهِ ، ودُونَ سِتْرِه وبابِه .

هذَا ما بَلَغَنا عنْ خالدِ بنِ عبد اللَّهِ القَسْرِىِّ واحتجاجِهِ . فأَمَّا خَالِدٌ المَهْزُولُ فهُو أَحَدُ الخَالِدَيْن . وهُما سَيِّدا بَنى أَسَدٍ . وفيه وفى خَالدِ بْن نَضْلَة يقولُ الأَسْوَدُ بنُ يَعْفُرَ :

وقبلكَ ماتَ الخالِدانِ كِلاَهُمَا عَمِيدُ بَنِى حَجْوَانَ وابنُ المُضَلَّلِ[2]

(قِصَّةُ الْحَارِثِىّ)

وقِيلَ لِلْحَارِثِىِّ بالأَمس : واللهِ إنَّكَ لَتَصْنَعُ الطَّعامَ فَتُجِيدُهُ ، وتَعْظُمُ عليكَ النَّفقَةُ ، وتُكثِرُ منهُ . وإنَّكَ لتغَالِى بالخَبَّازِ والطَّبَّاخِ والشَّوَّاءِ والخَبَّاصِ[3] . ثُم أَنتَ معَ هَذَا كُلِّه لا تُشْهِدُه عَدُوًّا لِتَغُمَّه ، ولاَ وَلِيًّا فَتَسُرَّهُ، ولا جَاهِلاً لِتُعَرِّفه ، ولاَ زائِرًا لِتُعَظِّمَه ، ولاَ شَاكِرًا لِتُثَبِّتَهُ . وأَنْت تَعْلَم (أَنَّه) حِينَ يَتَنَحى مِنْ بَيْن يَدَيْكَ ، ويَغيبُ عنْ عَيْنَيكَ ، فقدْ صارَ نَهْبًا مُقَسَّمًا ، وَمُتَوزَّعًا مُسْتَهلَكًا . فلَو أَحْضَرْتَه مَنْ ينفَعُ شُكْرُهُ ، ويَبْقَى علَى الأَيَّام ذِكْرُهُ ، ومَنْ يُمْتِعكَ بالحديثِ الحَسَنِ والاستماعِ ، ومَنْ يَمْتَد بِهِ الأَكْلُ ، ويُقصَّرُ بِهِ الدَّهْرُ - لَكَانَ ذلِكَ أَوْلَى بِكَ ، وأَشْبَهَ بالَّذِى قَدَّمْتَه يدُكَ .

وبعْدُ فلِمَ تُبِيحُ مَصُونَ الطَّعامِ لمنْ لا يَحْمَدُكَ ؟ ومَنْ إنْ حَمِدكَ لمْ يُحْسِنْ أَنْ يَحْمدكَ ؟ وَمَنْ لاَ يَفْصِلُ بينَ الشَّهِىِّ الغَذِىِّ ، وبينَ الغَليظ الزَّهِم ؟

قالَ : يَمنعُنِي مِنْ ذلِكَ ما قالَ أَبُو الفَاتِكِ . قالُوا : ومَنْ أبو الفَاتِك ؟ قالَ : قَاضِى الفِتْيانِ . وإنِّى لمْ آكُلْ معَ أحدٍ قطُّ إلاَّ رأيتُ مِنْهُ بَعْضَ ماذَمَّهُ ، وبعضَ ما شَنَّعَهُ وقَبَّحَهُ فشيءٌ يَقْبُحُ بالشُّطَّارِ ، فمَا ظَنُّكَ به إذَا كانَ فى أَصْحَابِ المُرُوءَاتِ وأَهْلِ البُيُوتَاتِ ؟

قَالُوا : فمَا قالَ أبو الفَاتِكِ ؟ قالَ : قالَ أَبُو فَاتِك : الفَتَى لا يكونُ نَشَّافًا ، ولا نشَّالًا ، ولا مِرْسَالًا ، ولا لكَّامًا ، ولا مَصَّاصًا ، ولا نقَّاضًا ، ولاَ دَلاَّكًا ، ولا مُقَوِّرًا ، ولا مُغَرْبِلًا ، ولا مُحَلْقِمًا ، ولاَ مسوِّغًا ، ولا مُبَلْعِمًا ، ولا مُخَضِّرًا.

---

(١) البهائم : هذه المناسبة وتلك المشابهة هى المضغ .

(٢) جَحْوَان : اسم رجل من بنى أسد وابن المضلل : هو خالد المهزول - والبيت للأسود فى الصبح المنير (٣٠٦) برواية :

∴ فَقَبْلَى ماتا الخالدان كلاهما ∴

وفى اللسان (جحا) برواية صاحب البخلاء ، ورواية ابن برّى ، مصوبًا :

∴ فقَبْلَى مات الخالدان . . . ∴

(٣) الخَبَّاص : صانع الخبيص ، وهى الحَلْوَاء المخبوصة من التمر والسمن .

فَكيفَ لَوْ رَأَى أَبُو الفَاتِكِ اللَّطَّاعَ ، والقَطَّاعَ ، والنَّهَّاشَ ، والمَدَّادَ ، والدَّفَّاعَ، والمُحَوِّلَ !

واللَّهِ إنِّى لأُفَضِّلُ الدَّهَّاقِينَ[1] حينَ عَابُوا الحَشوَ، وتَقَزَّزُوا منَ التَّعرُقِ[2]، وبَهْرجُوا صاحبَ التَّمْشِيشِ[3] وحينَ أكلُوا بالبارَجِينِ، وقَطعُوا بالسكِّينِ، ولَزِمُوا عِنْدَ الطَّعامِ السَّكْتَةَ، وتركُوا الخَوْضَ ، واخْتَارُوا الزَّمزمَةَ[4] .

أَنَا واللَّهِ أحْتَمِلُ الضَّيْفَ والضَّيْفَنَ ، ولا أحْتَمِلُ اللُّعْمُوظَ[5] ولا الجَرْدَبِيلَ[6] . والواغلُ[7] أَهْوَنُ علىَّ مِنَ الرَّاشِنِ[8] .

ومَنْ يَشُكُّ أَنَّ الوَحْدَةَ خيرٌ مِنْ جَلِيس السُّوءِ ؟ وأنَّ جَلِيسَ السُّوءِ خيرٌ من أَكِيلِ السُّوءِ ؟ لأَنَّ كلَّ أَكيلِ جَليسٌ ، وليسَ كلُّ جَليسٍ أكِيلًا .

فإنْ كانَ لابُدَّ مِنَ المُؤَاكَلةِ ، ولابُدَّ مَن المُشَارَكةِ ، فَمَعَ مَنْ لاَ يْستَأْثِرُ علىَّ بالمُخِّ ، ولا يَنْتَهِزُ بَيْضةَ البُقَيْلةِ ، ولا يَلْتَهِمُ كَبِدَ الدَّجاجَةِ ، ولا يُبَادِرُ إلَى دِمَاغِ رأسِ السُّلاَّءَةِ[9] ، ولا يختطِفُ كُلْيَةَ الجَدْيِ ، ولا يَزْدَرِدُ فَانِصَةَ الكُرْكِيِّ ، ولا يَنْتَزِعُ شَاكِلَةَ الحَمَلِ ، ولا يَقْتَطِعُ سُرَّةَ الشَّصَرِ[10] ، ولا يَعْرِضُ لِعُيُونِ الرُّءُوسِ ، ولا يستَولِى صُدورَ الدَّجاجِ ، ولا يُسابِقُ إلى أَسْقَاطِ الفِراخِ ، ولا يَتَنَاولُ إلاَّ ما بينَ يَدَيْه ، ولا يُلاحِظُ ما بَيْنَ يدىْ غيرِهِ ، ولا يَتَشهَّى الغَرائِبَ ، ولا يَمْتَحِنُ الإخْوانَ بالأُمُورِ الثَّمِينةِ ، ولا يَهْتِكُ أَسْتارَ الناسِ : بأنْ يَتَشهَّى ما عَسَى ألاَّ يكونَ مَوْجُودًا .

وكيفَ تَصْلحُ الدنْيَا ، وكيفَ يَطِيبُ العَيْشُ ، مَعَ مَنْ إذَا رَأَى جَزُورِيَّةً التقطَ الأَكبادَ والأَسْنِمَةَ ؟ وإذَا عايَنَ بَقَرِيَّةً اسْتَوْلَى علَى العَرْقِ والقِطْنَةَ[11] ؟ وإنْ أَتَوْا بِجَنْبِ شِوَاءٍ اكتَسَحَ كلَّ شَىْءٍ عليهِ ؟ لا يَرْحم ذا سِنٍّ لِضَعْفِه ، ولا يَرِقُّ علَى حَدَثٍ لِحِدَّةِ شَهْوَتِه ، ولا ينظرُ للعِيالِ ، ولا يُبالِى كيفَ دارتْ بهمُ الحالُ – وإنْ كَانَ لا بُدَّ مِنْ ذلكَ ، فَمَعَ مَنْ لاَ يَجْعَلُ نَصِيبَه فى مالِى أَكْثَرَ مِن نِصيبِى .

وأَشَدُّ مِنْ كلِّ ما وصَفْنَا ، وأَخْبَثُ مِنْ كُلِّ ما عَدَدْنا ، أنَّ الطبّاخَ ربَّما أَتَى باللَّونِ الطَّرِيفِ ، وربما قدَّمَ الشىءَ الغريبَ ، والعادةُ فى مِثْلِ ذلكِ اللَّونِ أن يكونَ لَطِيفَ الشخصِ ، صغِيرَ الحَجْم ، وليسَ كالطَّفَيْشَلِيَّةِ[12] ، ولا كالهَرِيسةِ ، ولا كالفُجْلِيّة ، ولا كالكُرُنْبِيَّة ، وربمّا عَجِلَ عليهِ ، فقدّمَهُ حارًّا مُمْتَنِعا . وربَّما كانَ مِنْ جَوْهَرٍ بطيءِ الفُتُورِ ، وأَصْحَابِى فى سُهولةِ ازْدِراءِ الحارِّ عليهِمْ فى طِباعِ النَّعامِ ، وأَنَا فى شِدَّةِ الحارِّ علىَّ فى طباعِ السِّباعِ. فإنِ انتظرتُ إلَى أن يُمْكِنَ أَتَوْا على آخرِهِ . وإنْ

---

(١) الدهاقين : جمع دهقان ، وهو رئيس القرية .
(٢) التعرق : نهش ما على العظم من لحم .
(٣) التمشيش : استخراج المخ من العظم .
(٤) الزمزمة : صوت فى الحلق والخيشوم من غير لسان ولا شفة .
(٥) اللُّعْمُوظ : المتطفل النهم الشره .
(٦) الجَرْدَبِيل : هو الذى يأكل باليمنى بعد أن يأخذ الكسرة باليسرى ، فإذا فنى ما بأيدى الآكلين أكل ما فى يده اليسرى .
(٧) الواغل : الداخل على طعام القوم وشرابهم من غير دعوة .
(٨) الرَّاشِن : المتشمم للطعام ، ويقال له : الطفيلي .
(٩) السُّلاَءَة : نوع من الطير .
(١٠) الشَّصَر : الذى قد قوى وتحرك من الظباء .
(١١) القِطْنَة : هى مثل الرمانة ، وهى تكون مع الكرش ، وهى ذات الأطباق .
(١٢) الطُّفَيْشَلِيّة : هى طعام مجهز بمرق .

بَدَرْتُ مَخَافَةَ الفَوْتِ ، وأردْتُ أَنْ أشارِكَهم فى بَعْضِهِ لم آمَنْ ضَرَرَه . والحارُّ ربّما قَتَلَ ، وربَّما أعْقَمَ، وربَّما أبالَ الدَّمَ .

(مع سمكة عجيبة)

ثُم قالَ : هذا عَلِيٌّ الأَسْوَارِىُّ أكَلَ مَعَ عِيسَى بنِ سُلَيمانَ بنِ علىٍّ . فوضِعتْ قدَّامَهم سَمَكَةٌ عَجيبةٌ ، فائِقةُ السِّمَنِ . فَحَاطَ بطنَها لَحْظُهُ ، فإذا هُوَ يَكْتَنِزُ شَحْمًا ، وقد كان غَصَّ بلُقْمةٍ ، وهو لَمُسْتَسْقٍ . فَفَرَغَ منَ الشَّرَابِ، وقد غَرَفَ مِن بطنِها كلُّ إنسانٍ منهم بلُقْمته غَرْفَةً . وكانَ عيسى ينتخِبُ الأَكَلَةَ ، ويختارُ منهُم كلَّ مَنْهُومٍ فيه ، ومَفْتُونٍ به .

فلمّا خافَ علىٌّ الأَسْوارِىُّ الإخْفَاقَ ، وأَشْفَقَ من الفَوْتِ ، وكانَ أَقْرَبَهم إليه عيسَى ، استَلَبَ مِنْ يَدِه اللُّقمةَ بأَسْرَعَ منْ خَطْفَةِ البازِى وانْحِدَارِ العُقابِ ، مِنْ غيرِ أن يكونَ أَكَلَ عِندَه قَبْلَ مَرَّتِهِ . فقيلَ له : ويْحَكَ ! استلبتَ لُقمةَ الأميرِ مِنْ يدِهِ ، وقدْ رفعَها إلَيهِ ، وشحَا لها فَاهُ[1] ، منْ غيرِ مُؤَانَسَةٍ ولاَ مُمَازَحةٍ سَالِفةٍ ! .

قالَ : لَم يكُنِ الأَمرُ كذلكَ . وكذَبَ مَنْ قالَ ذلكَ ! ولكنَّا أَهْوَيْنَا أيْدِينَا معًا، فوقَعَتْ يَدِى فى مُقَدَّمِ الشَّحْمَةِ ، ووقعتْ يدُهُ فى مُؤَخَّرِ الشَّحْمةِ معًا ، والشَّحمُ مُلْتَبِسٌ بالأمْعاءِ . فلمَّا رَفَعْنَا أيدينَا معًا ، كنتُ أنَا أسْرَعَ حَرَكَةً ، وكانتَ الأمْعَاءُ مُتَّصلةً غَير مُتَبَايِنَة . فتحوَّل كلُّ شىءٍ كانَ فى لُقْمَتِه بتلك الجَذْبَة إلى لُقْمَتي ، لاتِّصالِ الجِنْسِ بالجنسِ ، والجَوْهَرِ بالجَوْهرِ .

وأنَا كيفَ أُوَاكِلُ أَقْوَامًا يَصْنَعُونَ هذا الصَّنِيع ، ثم يَحْتجُّون لهُ بمثْل هذه الحُججِ؟

(مشورتكم غير مقبولة)

ثُم قالَ : إنكم تُشِيرونَ علىَّ بملابَسةِ شِرَارِ الخلْقِ ، وأنْذَالِ النَّاسِ ، وبكلِّ عيَّابٍ مُتَعَتِّب ، وَوَثَّابٍ علَى أعْرَاضِ النَّاسِ مُتَسَرِّعٍ . وهؤلاءِ لَم يَرْضَوْا (إلا) أنْ يدْعُوَهُمُ الناسُ ، ولا يَدْعُوا الناسَ ، وأن يَأْكُلُوا ، ولا يُطْعِمُوا ، وأن يتحدَّثُوا عنْ غَيْرِهُم ، ولا يبالُون أنْ يُتَحَدَّثَ عنهُم . وهمِ شرارُ الناسِ .

ثم قالَ : أجلَسَ مُعَاوِيَةُ ، وهُو فى مَرْتَبَةِ الخِلافةِ ، وفى السَّطْحِ[2] منْ قُرَيْشٍ ، وفى نُبْلِ الهِمَّةِ ، وإصابةِ الرأيِ ، وجَوْدَةِ البيَانِ ، وكَمَالِ الجِسْمِ ، وفى تَمَامِ النَّفْسِ عندَ الجَوْلةِ ، وعندَ تَقَصُّفِ الرِّماحِ ، وتَقَطُّعِ السُّيُوفِ – رَجُلًا علَى مائِدتِه ، مَجْهُولَ الدارِ ، غيرَ مَعْرُوفِ النَّسَبِ ، ولا مَذْكُورٍ بيومٍ صالحٍ . فأَبْصَرَ فى لُقْمتِه شَعْرَة ، فقالَ : خذِ الشَّعْرَة مِنْ لُقْمَتِكَ . (ولا وَجْهَ لهذا القَوْلِ إلاَّ مَحْضُ النَّصيحةِ والشَّفَقَةِ) . فَقَالَ الرجلُ : وإنَّكَ لتُراعِينى مُرَاعاةَ مَنْ يُبْصِرُ معها الشَّعْرةَ ! لا جلستُ

(١) شحَا لها فَاهُ : أى فتحها . (٢) السَّطْح : الذروة .

لَكَ علَى مائدةٍ ما حَيِيتُ ، ولا حَكَيتُها عنكَ ما بَقِيتُ !

فلم يَدْرِ الناسُ أيُّ أمْرَىْ مُعاويةَ كان أحْسَنَ وأَجْمَلَ : تَغَافُله عنه ، أَمْ شَفَقَته عليهِ ؟ فكانَ هذا جَزَاءَهُ منهُ ، وشُكْرَهُ لهُ .

ثُمَّ قالَ : وكيفَ أطْعِمُ مَنْ إنْ رأيْتُه يُقَصِّرُ فى الأَكْلِ ، فقلتُ لهُ : كُلْ ولا تُقَصِّر فى الأَكْلِ ، قالَ : يَفْطَنُ لفَضْلِ مَا بينَ التَّقْصِيرِ وغَيْرِهِ ! وإنْ قَصَّر فلمْ أَنَشِّطْهُ ولم أَحُثَّه ، قالَ : لولاَ أنَّه وافَقَ هَوَاهُ!

ثم قالَ : ومَدَّ رجلٌ مِنْ بَنِى تَمِيم يَدَهُ إلَى صَاحِب الشَّرابِ يَسْتَسْقِيهِ ، وهُوَ علَى خُوَانِ المُهَلَّبِ ، فلم يَرَه السَّاقِى ، فلمْ يَفْطَنْ لهُ . فَفَعَل ذلِكَ مِرارًا ، والمُهَلَّبُ يَراهُ ، وقدْ أمسكَ عنِ الأَكْلِ ، إلَى أَنْ يُسِيغَ لُقْمَتَهُ بالشَّرابِ . فلمَّا طالَ ذلكَ على المُهَلَّبِ ، قالَ : اسْقِه ياغلامُ ما أحَبَّ مِنَ الشَّرابِ . فلمَّا سَقَاهُ استقلّه ، وطلبَ الزيادة منهُ . وكانَ المُهلَّبُ أوْصاهُمْ بالإقْلالِ منَ الماءِ ، والإكْثارِ منَ الخُبْزِ ، قالَ التَّمِيمىُّ : إنَّكَ لسريعٌ إلَى السَّقْىِ ، سريعٌ إلى الزِّيادةِ ! وحَبَسَ يَدَهُ عنِ الطعَامِ . فقالَ المهلَّبُ : أَلْهُ عن هذَا أيُّها الرَّجلُ ، فإنَّ هذَا لا يَنْفَعُك ولا يَضُرُّنا ! أرَدْنا أمرًا وأردتَ خِلافَه .

وقدْ علمتُ أنِّى دُونَ مُعَاويةَ ، وَدُونَ المُهلَّبِ بنِ أَبِى صُفْرَةَ ، وأنَّهُم إلىَّ أسْرَعُ ، وفى لَحْمِى أرْتَع[1] .

(وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ)

ثُمَّ قالَ : وفِى الجارُودِ بنِ أبى سَبْرَةَ[2] لكمْ واعظٌ ، وفى أَبِى الحارثِ جُمَّيْنٍ زاجِرٌ ؛ فقد كانَا يدْعَيانِ إلى الطعامِ وإلى الإكرامِ ، لِظَرْفِهِما ، وحلاَوتهمَا ، وحُسْنِ حَدِيثهمَا ، وقِصَرِ يَوْمِهما . وكانَا يتَشَهَّيان الغَرائِبَ ، ويَقْتَرِحانِ الطَّرائِفَ ، ويُكَلِّفانِ النَّاسَ المُؤَنَ الثِّقَالَ ، ويَمْتَحِنانِ ما عِنْدهُم بِالكُلَفِ الشِّدادِ . فكانَ جزاؤُهُمْ منْ إحْسانِهم ما قدْ علِمتمْ .

قالَ : ومِنْ ذلِكَ أنَّ بِلالَ بنَ أبى بُرْدَةَ كانَ رَجُلًا عَيَّابًا ، وكانَ إلَى أعْرَاضِ الأَشْرَافِ مُتَسَرِّعًا . فقالَ للجارُودِ : كيفَ طعامُ عبدِ اللَّه بنِ أبى عُثْمانَ ؟ قالَ : يُعْرَفُ ويُنْكَر . قال : فكيفَ هُوَ عليهِ ؟ قال يُلاحِظُ اللُّقَمَ ، وَيَنْتَهِرُ السائِلَ . قالَ : فكيفَ طعامُ سَلْمِ بنِ قُتَيْبةَ ؟ قال : طعامُ ثلاثةٍ ، وإنْ كانُوا أربعةً جاعوا . قال : فكيفَ طعامُ تَسْنِيم بنِ الحَوَارِىِّ ؟ قال : نُقَطُ العَرُوسِ. قالَ : فكيفَ طعامُ المُنْجَابِ بن أبى عُيَيْنَةَ ؟ قال : يَقُولُ : لا خَيرَ فى ثلاثِ أصَابعَ فى صَحْفَةٍ – حتَّى أتَى علَى عَامَّةِ أهلِ البَصْرَة ، وعلَى كلِّ مَنْ كانَ يُؤْثِرُه بالدَّعْوة ، وبالأَنَسَةِ والخاصَّةِ ، ويحكِّمُه فى مَالِه . فلم يَنْجُ

---

(١) أرْتَع : رتعت الماشية : أكلت كيف شاءت . والمراد هنا الغيبة حيث نفرت الآية منها بأكل لحم الأخ وهو ميت : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

(٢) الجارُود بن أبى سَبْرَة سالم بن سلمة الهذلى البصرى ، روى عن أبى ، وطلحة بن عبيد الله وأنس ، وروى عنه قتادة وثابت البنانى . توفى سنة ١٢٠ (تهذيب التهذيب) .

منهُ إلاَّ مَنْ كان يُبعْدُه ، كما لم يُتَلَ به إلاَّ مَنْ كان يُقَرِّبُه !

وهذَا أبو شُعَيْبٍ القَلاَّلُ فى تَقْرِيب مُوَيْسٍ له ، وأُنْسِه به ، وفى إحْسانِه إليْهِ ، معَ سخائِهِ علَى المأكولِ ، وغَضِّ طَرْفه عَنِ الأَكِيلِ ، وقِلَّة مُبالاَته بالحِفْظ ، وقِلَّة احتِفالِه بِجَمْعِ الكثيرِ - سُئِلَ عَنْهُ أبو شُعَيْبٍ ، فزَعَم أنَّه لم يَرَ قَطُّ أَشَحَّ مِنْهُ علَى الطَّعامِ . قيلَ : وكيفَ ؟ قالَ : يَدُلُّكَ على ذَلِكَ أنَّهُ يَصْنَعه صَنْعَةً ، وَيُهيِّئُهُ تَهْيِئَةَ مَنْ لا يريدُ أَنْ يُمَسَّ ، فَضْلًا عَلَى غيرِ ذَلِكَ ! وكيفَ يَجْتَرِئُ الضِّرسُ علَى إفْسَادِ ذلكَ الحُسْنِ ، ونَقْضِ ذلك النَّظْمِ ، وعلَى تَفْرِيقِ ذلكَ التأْليفِ ! وقد عَلِم أنَّ حُسْنَه يُحْشِم ، وأنَّ جمالَهُ يُهَيِّبُ منهُ . فلو كانَ سَخِيًّا لم يَمْنَعْ منهُ بهذَا السِّلاحِ ، ولم يَجْعَلْ دُونَه الجُنَنَ[1] . فَحوَّلَ إحسَانَه إساءَةً وبَذْلَه مَنْعًا ، واستدعَاءَه إليه نَهْيًا .

قالَ : ثُم قيلَ لأَبى الحارِثِ جُمَّيْنٍ : كيفَ وَجْهُ محمدِ بنِ يَحْيَى على غَدائِهِ ؟ قالَ : أمَّا عينَاهُ فَعَيْنَا مَجْنُونٍ !

وقالَ فيه أيضًا : لو كانَ فى كفِّه كُوُّ خَرْدَلٍ[2] ، ثم لَعِبَ به لَعِبَ الأُبُلِّيِّ[3] بالأُكْرَةِ ، لما سَقَطتْ مِن بيْنِ أصابعِهِ حَبَّةٌ واحِدةٌ !

وقيلَ له أيضًا : فكيفَ سخاؤُه علَى الخُبْزِ خَاصَّةً ؟ قالَ : واللَّهِ لو أُلْقِيَ إليهِ منَ الطَّعَامِ بِقَدْرِ مَا إذَا حَبَسَ نَزْفَ السَّحَابِ ، ما تجافَى عن رَغيفٍ !

وكانَ أبو نُوَاسٍ يَرْتَعِى علَى خُوَانِ إسماعيلَ بنِ نَيْبَخْتَ ، كما تَرْتَعِى الإبلُ فى الحَمْضِ بَعْدَ طُولِ الخُلَّة ! ثم كان جَزَاؤُه مِنْه أنَّه قالَ :

خُبْزُ إسماعيلَ كالوشْـ ـي إذَا ما شُقَّ يُزفَى[4]

وقال :

وما خُبْزُهُ إلا كُلَيْبُ بنُ وائلٍ لَيَالى يَحْمِى عِزُّه مَنْبِتَ البَقْلِ

وكانَ أبو الشَّمَقْمَقِ يَعيبُ فى طعام جَعْفَر بنِ أبى زُهَيْرٍ ، وكان له ضَيْفا . وهو مع ذلكَ يقولُ :

رأيتُ الخُبزَ عزَّ لَدَيْكَ حتَّى حَسِبْتُ الخبزَ فى جوِّ السَّحابِ

وما زَوَّحْتَنَا لِتَذُبَّ عَنَّا ولكِنْ خِفْتَ مَزْزِئَةَ الذُّبابِ[5]

وقيلَ للجَمَّاز : رأيناكَ فى دِهْلِيزِ فُلانٍ ، وبين يَدَيْك قَصْعةٌ وأنتَ تأكلُ . فَمِن أىِّ شىءٍ كانتِ القصْعةُ ؟ وأىُّ شىءٍ كانَ فيهَا ؟ قالَ : قَىْء كلبٍ فى قِحْفِ خنزيرٍ !

وقيلَ لرجلٍ مِنَ العَرَبِ : قدْ نزلتَ بجميعِ القبائِلِ ، فكيفَ رأيتَ خُزَاعَة ؟ قالَ : جوعٌ

---

(١) الجُنَن : جمع جُنَّة ، وهى السترة والمانع .
(٢) الكُوُّ : مكيال لأهل العراق ، أو ستون قفيزًا ، أو أربعون إردبًا .
(٣) الأُبُلِّىّ : نسبة إلى الأُبُلَّة ، موضع بالبصرة .
(٤) فى عيون الأخبار لأبى نواس (٣/ ٢٧١) .
(٥) فى عيون الأخبار لأبى الشَّمَقْمَق (٣/ ٢٧٠) .

وأَحاديثُ! .

ونزلَ عَمْرُو بنُ مَعْدِ يكَرِبَ[1] بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي المُغِيرةِ ، وهم أَكثرُ قرَيْشٍ طَعامًا . فأتاهُ بمَا حَضَر . وقدْ كَانَ فيمَا أَتاهُ به فَضْلٌ . فقالَ لعُمَرَ بنِ الخطَّابِ ، وهُم أَخْوالُه : لِئامَ بنى المُغِيرةِ يا أمير المُؤْمنينَ ! قالَ : وكيفَ ؟ قالَ نزلتُ بهمْ فما قَرَوْنِى غَيْرَ قَرْنَيْنْ وكَعْبِ ثَوْر .

قال عُمَرُ : إنَّ ذلكَ لَشُبْعَةٌ .

وكَمْ قَدْ رأينَا منَ الأعرابِ مَنْ نَزَلَ بِرَبٍّ صِرْمةٍ[2] ، فأتاهُ بِلَبَنٍ وتَمْرٍ وحَيْسٍ وخُبْزٍ وسَمْنٍ سِلاءٍ[3] . فباتَ ليلتَه ، ثم أصبحَ يَهْجُوه : كيفَ لم يَنْحَرْ لَه - وهو لاَ يُعْرَفُ - بعيرًا من ذَوْدِه ، أو مِنْ صِرْمَتِه ! وَلَوْ نَحَرَ هذا البائسُ لكلِّ كَلْبٍ مَرَّ به بَعيرًا ، مِنْ مخافةِ لِسَانه ، لما دَارَ الأُسْبُوعُ إلاَّ وهو يَتَعَرَّضُ للسابِلةِ ، يتكفَّفُ الناسَ ، ويَسْأَلُهُمْ العُلَقَ[4] !

وسأَلَ زيادٌ عَنْ رَجل مِنْ أَصْحابه ، فَقِيلَ : إنه لَمُلازِمٌ ، وما يُغِبُّ غَدَاء الأَميرِ . فقال زيادٌ : فَلْيُغِبَّه ، فإنَّ ذلك ممَّا يَضُرُّ بِالعيَالِ . فألزَمُوه الغِبَّ . فعابوا زيادًا بذلكَ . وزَعَمُوا أَنَّهُ استثقلَ حُضُورَه فى كلِّ يَوْم ، وأراد أن يَزْجُرَ به غَيْرَهُ ، فيُسْقِطَ عَنْ نَفْسِه وعنْ ماله مُؤْنَةً عظيمةً .

وإنَّما كانَ ذلكَ مِنْ زِيادٍ على جِهَةِ النَّظَر للعِيَالاتِ ، وكما يَنْظُرُ الرَّعِيَّة ، وعلى مذْهَبِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه . (وقدْ قالَ الحسنُ[5] : تَشَبَّهَ زيادٌ بِعُمَر فأَفْرَطَ ، وتشبَّهَ الحجاجُ بزيادٍ فأَهْلكَ الناسَ) - فجعلتُمْ ذلك عَنَتًا منهُ.

وقالَ يوسفُ بنُ عُمَر لِقُوَّام موائِده : أَعْظِمُوا الثَّريدةَ ، فإنَّها لُقْمة الدَّرْدَاءِ[6] : فقد يَحْضُرُ طعامَكُمُ الشيخُ الذى قد ذَهبَ فَمُه ، والصبيُّ الذى لم يَنْبُتْ فَمُه . وأَطْعِمُوه ما تَعْرُقُون ؛ فإنَّه أَنْجَعُ وأَشْفَى لِلْقَرَمِ[7] .

فقلتُم : إنَّما أرادَ العَجَلة والرَّاحةَ بِسُرْعة الفَرَاغ ، وأَنْ يَكِيدَهمْ بالثَّرِيدِ ، ويملأَ صُدُورَهم بالعُرَاقِ[8] .

وقدْ قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : سيدُ الطَّعامِ الثَّرِيدُ ، ومَثَلُ عائِشَةَ فى النِّساء مَثَلُ الثَّرِيدِ فى الطعامِ - ولِعِظَم صَنْعةِ الثَّرِيدُ فى أَعْيُن قرَيْش سَمَّوْا عَمْرَو بنَ عَبْدِ مَنَافٍ بهاشِمٍ ، حينَ هَشَمَ الخُبْزَ ، واتَّخذَ منه

---

(١) عَمرو بن مَعْد يَكْرِبَ بن ربيعة بن عبد الله الزبيدى : فارس اليمن ، وصاحب الغارات المذكورة . وفد على المدينة سنة ٩ هـ ، فأسلم . ولما توفى النبى ﷺ ارتد عمرو ثم رجع . شهد اليرموك والقادسية . وله ديوان شعر . الأعلام (٥/ ٨٦) .

(٢) صِرمة : الصرمة من الإبل : هى ما بين العشرة والأربعين .

(٣) سلاء : سمن سلى حتى ذهب أثر الزبد منه .

(٤) العُلَق : جمع علقة ، وهى كل ما يتبلغ به من العيش .

(٥) هو الحسن البصرى أبو سعيد إمام أهل البصرة والعالم الفقيه الصالح الناسك توفى سنة ١١٠ هـ .

(٦) الدَّرْدَاء : من سقطت أسنانه فتكون اللقمة لينة .

(٧) وأَشْفَى لِلْقَرَم : من اشتدت شهوته إلى اللحم .

(٨) بالعُرَاق : العظم عليه رقائق اللحم .

الثَّريدَ ، حتَّى غلبَ عليه الاسمُ المشتَقُّ له مِنْ ذلك .

وقالَ عَوْفُ بنُ القَعْقَاع لمولاه : اتَّخِذْ لنَا طعامًا يُشْبِعُ فَضْلُه أهلَ المَوْسِم .

قلتُم : فلمَّا رأى الخُبْزَ الرُّقاقَ والغُلاَظَ والشِّواءَ والألوانَ ، واستِطْرافَ[1] الناسِ للَّونِ بَعْدَ اللونِ ، ودَوَامَ أَكْلِهم لِدَوَامِ الطُّرَفِ ، وأنَّ ذلكَ لَوْ كان لَوْنًا واحدا لكانَ أَقَلَّ لأَكْلِهم ، قالَ : فهَلاَّ فعلته طعامَ يَدٍ ، ولم تجعلْه طَعَامَ يَدَيْن!

فقلتمُ : اتَّسعَ ثم ضاقَ ، حينَ أَرَادَ إطْعَامَهُمُ الثَّريدَ والحَيْسَ ، وكلَّ ما يُؤْكل بِيَدٍ دُونَ يَدَيْنِ .

والقَعْقَاعُ عربيٌّ كَرِهَ لمولاَه أنْ يَرْغَبَ عَنْ طعامِ العَرَبِ ، إلَى طعامِ العَجَمِ. وأرادَ دَوَامَ قَرمِهِ علَى مِثْلِ ما كانُوا علَيهِ ، وعلَى أنَّ الثَّروةَ تَفْنَخُهُمْ وتُفْسِدُهم، وأنَّ الذِى فُتِحَ عليهم مِنْ بَابِ التَّرَفُّهِ ، أَشَدُّ عليهمْ مِمَّا غُلِّقَ عليهمْ منْ بَابِ فُضُولِ اللَّذةِ .

وقَدْ فَعَلَ عُمَرُ مِنْ جهَةِ التَّأديبِ أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ ، حينَ دُعِىَ إلى عُرْسٍ ، فرأى قِدْرًا صَفْرَاءَ ، وأُخْرَى حَمْرَاءَ ، وواحدةً مُرَّةً ، وأُخْرَى حُلْوةً ، وواحدةً مُحْمَضةً . فَكَازَهَا[2] كلَّها فى قِدْرٍ عَظِيمةٍ ، وقالَ : إنَّ العربَ إذَا أكلتْ هذا قَتَلَ بعضُها بعضًا .

(تَفسِيرُ كَلاَمِ أَبِى فَاتِكٍ)

أما قَوْلُه : الفَتَى لا يكونُ نَشَّالًا ، (فالنَّشَّالُ) عِندَه الَّذى يَتَنَاولُ مِنَ القِدْرِ، ويأكلُ قَبْلَ النُّضْجِ ، وقبلَ أن تُنْزَلَ القِدْرُ ويَتَمَامُّ القومُ .

(والنَّشَّافُ) الذى يأخذُ حَرْفَ الجَرْدَقةِ[3] فَيَفْتَحُه ، ثم يغْمِسُهُ فى رأسِ القِدْرِ ، ويُشْرِبُه الدَّسَمَ ، يستأثرُ بذلكَ دُونَ أصْحابِهِ .

(والمرْسَالُ) رَجُلاَنِ : أحَدُهما إذا وَضَعَ فى فمه لُقْمَةَ هَرِيسةٍ أو ثَرِيدةٍ أو حَيْسَة[4] أو أُرْزَةٍ ، أرسلَها فى جَوْفِ حَلْقِهِ إرْسالًا . والرجلُ الآخَرُ : هُو الَّذِى إذَا مَشَى فى أَشِبٍ[5] مِنْ فَسِيلٍ أو شَجَرٍ ، قَبَضَ علَى رأسِ السَّعَفَةِ ، أو علَى رأسِ الغُصْنِ ، لِيُنَحِّيَهَا عَنْ وَجْهِهِ . وإذَا قَضَى وَطَرَهُ أرسلَهَا مِنْ يَدِهِ. فهِيَ لاَ مَحَالَةَ تَصُكُّ وَجْهَ صاحِبِه الذى يَتْلُوهُ ، لا يَحْفِلُ بذلكَ ، ولا يَعْرِفُ ما فيهِ .

وأَمَّا (اللكَّامُ) فالذِى فِى فِيهِ اللُّقْمَةُ ، ثُم يَلْكُمُها بأُخْرَى ، قَبلَ إجادةِ مَضْغِها أو ابتلاعِهَا .

(والمصَّاصُ) الَّذِى يَمُصُّ جَوْفَ قَصَبةِ العَظْمِ ، بعد أنِ استَخْرَجَ مُخَّهُ ، واستأثَرَ بِهِ دُونَ أصْحَابِهِ .

وأَمَّا (النَّفَّاضُ) فَالذى إذَا فَرَغَ مِنْ غَسْلِ يدِهِ فى الطِّسْتِ ، نَفَضَ يَدَيْه مِنَ الماءِ ، فنَضَحَ علَى

---

(١) استِطْراف الناس : أى عدهم ذلك طريفاً : أى شائقا ممتعاً .

(٢) فَكَازَها : أى جمعها ، والمقصود من ذلك البعد من التنعم والتلذذ والقرب من البداوة بتشويه طعام هذه الألوان .

(٣) الجردقة : الرغيف .

(٤) حَيْسَة : طعام من تمر مخلوط بالسمن واللبن المغلى الذى ترك حتى تقطر مائه .

(٥) أَشِب : الملتف ، والفسيل : صغار النخل .

أصْحابِهِ .

وأمَّا (الدَّلاَّكُ) فالَّذى لا يُجِيدُ تَنْقِيَةَ يديْه بالأشْنَانِ ، ويُجيدُ دَلْكَهُمَا بالمِنْدِيل . وله أَيضًا تفسيرٌ آخرُ – وليسَ هُو الذِى تظنُّهُ – وهو مَلِيحٌ . وسيقَعُ فى مَوْضِعِهِ ، إنْ شاءَ اللَّهُ .

(والمُقَوِّرُ) الَّذِى يُقَوِّرُ الجرادِقَ .

(والمُغَرْبِلُ) الذِى يأخذُ وِعَاءَ المِلْحِ ، فَيُدِيرُهُ إدارةَ الغرْبالِ ، ليَجْمَع أَبازِيرَهُ[1] ، يستأثِرُ به دُونَ أصحابِهِ ، لا يُبالِى أنْ يَدَعَ مِلْحَهُم بلاَ أَبْزارٍ .

(والمُحَلْقِمُ) الذِى يتكلمُ واللُّقْمَةُ قدْ بَلَغَتْ حُلْقُومَهُ . نقولُ لهذَا : قَبِيحٌ ! دَعِ الكلامَ إلى وَقْتِ إمكانِه .

(والمُسَوِّغُ) الَّذِى يُعَظِّم اللُّقَمَ ، فلاَ يَزَال قَدْ غَصَّ ، ولا يَزَالُ يُسِيغُه بالماءِ .

(والمُبَلْعِمُ) الَّذى يأخُذُ حُرُوفَ الرَّغِيفِ ، أو يَغْمِزُ ظَهْرَ التَّمْرةِ بإبْهامِه ، ليَحْمِلاَ لَهُ منَ الزُّبْدِ والسَّمْنِ ، ومِنَ اللَّبَإِ[2] واللَّبنِ ، وَمِن البَيْضِ النِّيمِ بِرِشْتٍ ، أكْثَرَ .

(والمُخَضِّرُ) الَّذى يَدْلُكُ يَدَه بالأشْنَانِ من الغَمَرِ والوَدَكِ ، حتَّى إذَا اخْضَرَّ واسْوَدَّ منَ الدَّرَنِ ، دَلَكَ به شَفَتَهُ .

هذا تفسيرُ ما ذكَرَ الحارِثى مْن كَلاَمِ أَبِى فاتِكٍ .

فأمَّا مَا ذكَرَه هُوَ ، فإنَّ (اللَّطَّاعَ) مَعْرُوفٌ ، وهُو الذِى يَلْطَعُ إصْبَعهُ ، ثم يُعِيدُهَا فى مَرَقِ القوْمِ أو لَبَنِهم أو سَوِيقِهم[3] ، وما أشْبَه ذلكَ .

(والقَطَّاعُ) الَّذى يَعَضُّ على اللُّقْمةِ ، فيقطَعُ نصفَها ، ثم يَغْمِسُ النِّصفَ الآخرَ فى الصِّباغِ .

(والنَّهَّاشُ) ، وهو مَعْروفٌ . وهُو الذى يَنْهَشُ اللحمَ كما يَنْهَشُ السَّبُعُ .

(والمَدَّادُ) الذِى ربَّما عَضَّ على العَصَبِ التى لم تَنْضجْ ، وهو يَمُدُّها بفيهِ، ويَدُه تُوَتِّرها لَهُ . فربَّمَا قَطَعها بِنَتْرةٍ ، فيكونُ لهَا انْتِضَاحٌ على ثَوْبِ المُؤَاكِلِ . وهو الَّذى إذاَ أَكَلَ معَ أَصْحابِهِ الرُّطَب ، أو التَّمْرَ ، أو الهَرِيسةَ ، أو الأُرْزَةَ ، فأَتَى علَى ما بَيْنَ يَدَيْه ، مَدَّ ما بَيْنَ أيدِيهِم إليهِ .

(والدفَّاعُ) الَّذِى إذَا وَقَعَ فى القَصْعةِ عَظْمٌ فصارَ ممَّا يَليهِ ، نَحَّاه بلُقْمَتِه منَ الخبزِ ، حتَّى تَصيرَ مكانَهُ قطعةٌ مِنْ لحمٍ ، وهُو فى ذلكَ كأَنَّه يطلبُ بِلُقْمتِه تَشْرِيبَ المَرَقِ ، دُونَ إرَاغَةِ اللحمِ[4] .

(والمُحوِّلُ) هُو الذِى إذَا رأَى كثرةَ النَّوَى بينَ يديْه ، احتالَ له حتى يَخْلِطه بنَوَى صاحبِهِ .

وأما ما ذَكره مِنَ (الضَّيْفِ) (والضَّيْفَنِ) ، فإنَّ الضَّيْفَنَ ضيْفُ الضيفِ.

---

(١) أبازِيره : توابله .

(٢) اللَّبَأ : أول اللبن عند الولادة قبل أن يرق . وفى الطب : سائل تفرزه غدة الثدى قبيل الولادة وبعدها بأيام معدودة .

(٣) السويق : ما يعمل من الحنطة والشعير .

(٤) إرَاغَة اللحمِ : طلب اللحم ، أى السعى وراءه .

وأنشد أبو زَيْدٍ :

إذَا جَاءَ ضيفٌ جاء للضَّيفِ ضَيفَنٌ فأوْدَى بمَا يُقْرَى الضُّيوفُ الضَّيَافِنُ[1]

وأما قولُه : (الواغِلُ) أهْوَنُ عليَّ منَ (الرَّاشِنِ) ، فإنَّه يَزْعُمُ أنَّ طُفَيْلِيَّ الشَّرابِ أهونُ عليَّ من طُفَيْليِّ الطعامِ .

وقولُ النَّاسِ : فلانٌ طُفَيْليٌّ ، ليسَ منْ أصُولِ كلامِ العربِ : ليس كَالرَّاشنِ واللُّغْمُوظِ . وأهْلُ مكةَ يُسمُّونهُ البُرَقِيَّ .

وكانَ بالكُوفةِ رجلٌ من بنى عبدِ اللَّه بنِ غَطَفَان يُسَمَّى طُفَيْلا . كانَ أبْعَدَ الناس نُجْعَةً[2] فى طَلَب الولائِم والأعْراسِ . فقيلَ له لذلكَ : طُفَيْلُ العَرَائِس ، وصارَ ذَلك نَبْزًا له ولَقَبًا ، لا يُعْرَفُ بغيرِهِ . فصارَ كلُّ مَنْ كانت تِلك طِعْمَتَه يقال له : طُفَيْليٌّ .

هذا منْ قول أبى اليَقْظَانِ .

ثُم قالَ الحارِثيُّ : وأعْجَبُ مِنْ كلِّ عَجَبٍ ، وأطْرفُ مِنْ كلِّ طَرِيفٍ ، أنَّكم تُشِيرونَ عليَّ بإطْعامِ الأكَلَةِ ، ودَفْعِى إلَى الناسِ مَالِى ، وأنتُم أتْركُ لهذَا مِنِّى. فإنْ زعمتُم أنِّي أكثرُ مالًا ، وأعَدُّ عُدَّةً ، فليسَ مِنْ حَالِى وحالِكُمْ فى التَّقارُبِ ، أنْ أطْعِمَ أبَدًا ، وأنتمُ تأكُلُونَ أبَدًا .

فَإذَا أتيتُمْ فى أموالكُم منَ البَذْلِ والإطْعامِ علَى قَدْرِ احتمالكُم ، عَرفتُ بذلكَ أنَّ الخَيْرَ أردتُم ، وإلَى تَرْبيتى ذَهَبْتُم . وإلاَّ فإنَّكم إنَّما تَحْلُبُون حَلَبا لكُم شَطْرُه[3] . بلْ أنتُم كمَا قالَ الشاعِرُ :

يُحِبُّ الخمرَ مِنْ مالِ النَّدَامَى ويَكْرَهُ أن يفارقَهُ الفُلُوسُ

ثم قال : واللَّه إنِّى لو لم أترُكْ مُؤاكلةَ الناسِ وإطعامَهم إلاَّ لسُوء رِعَة عَليِّ الأسْوارِيِّ لتركتُه . ومَا ظنُّكم برجُلٍ نَهَشَ بَضْعةَ لحمٍ تَعَرُّقا[4] ، فبلغَ ضِرْسَه وهو لا يعلمُ ! فَعَلَ ذلكَ عنْدَ إبراهيمَ بن الخطَّابِ ، مَولَى سُلَيمانَ.

وكانَ إذَا أكلَ ذَهَبَ عقْلُه ، وجَحَظتْ عَيْنُه ، وَسكِر ، وسَدِرَ[5] ، وانْبَهَر ، وتربَّد وجْهُه ، وعَصَب ، ولم يَسْمَعْ ولم يُبْصِرْ !

فلمَّا رأيتُ ما يَعْتَرِيهِ ، وما يَعْتَرِى الطَّعَامَ منه ، صرْتُ لا آذَنُ له إلاَّ ونحنُ نأكلُ التَّمْرَ والجَوْزَ والباقِلِىَّ .

ولمْ يَفْجَأنِى قَطُّ وأنَا آكُلُ تَمْرًا إلاَّ اسْتَفَّه سَفًّا ، وحَسَاهُ حَسْوًا ، وذرَا به ذَرْوًا ؛ ولا وَجَده كَثِيرًا

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٢٥٦) برواية : «تقرى» بدلا من «يقرى» .

(٢) نُجْعَةً : نجع الكلأ : طلبه فى مواضعه ، ونجع المكان : أتاه ونزل به .

(٣) الشطر : النصف .

(٤) تَعَرُّقا : أى استئصالا لِلحم من فوق العظم . لأن العُراق العظم الذى أكل لحمه .

(٥) سَدِرَ : تحير واضطرب .

إلاَّ تناولَ القَصْعةَ كجُمْجُمَةِ الثَّوْرِ ؛ ثُم يأخُذُ بحِضْنَيْها، ويُقِلُّها منَ الأرضِ ! ثم لا يزالُ يَنْهَشُها طُولا وعَرْضًا ، وَرَفْعًا وخَفْضًا ، حتَّى يأتِيَ عليها جميعًا ! ثُم لا يَقَع غَضَبُه إلاَّ عَلَى الأنْصَافِ والأثْلافِ !

ولم يَفْصِلْ تمرةً قَطُّ من تَمْرةٍ . وكانَ صاحِبَ جُمَل ، ولم يكن يَرْضَى بالتَّفَارِيق ؛ ولا رَمَى بِنَواةٍ قطُّ ولا نَزَعَ قِمَعًا[1] ، ولا نَفَى عَنْه قِشْرًا ، ولا فَتَّشهُ مَخَافَةَ السُّوسِ والدُّودِ !

ثُمَّ ما رأيتهُ قَطُّ ، إلاَّ وكأنَّه طالِبُ ثَأر ، وشَحْشحَانٌ[2] صاحِبُ طائِلة ! وكأنَّه عاشِقٌ مُغْتَلِم ، أو جائعٌ مَقْرورٌ[3]!

واللَّه يا إخْوَتِى لو رأيتُ رجُلا يُفْسِدُ طينَ الرَّدَغَة ، ويضِيعُ مَاءَ البحْرِ ، لصَرَفْتُ عنهُ وَجْهِى!

فإذَا كانَ أصحابُ النظرِ ، وأهلُ الدِّيانةِ والفَلْسفةِ ، هذه سِيرتُهم ، وهكَذا أدَبُهُم ، فما ظَنُّكُمْ بِمَنْ لا يُعَدُّ ما يُعَدُّونَ ، ولا يَبْلُغُ من الأدَبِ حيثُ يَبْلُغونَ !

(قِصَّةُ الكِنْدِىِّ)

حدّثَنى عَمْرُو بن نِهْيَوِىٍّ ، قالَ : كانَ الكِنْدِىّ لا يزالُ يقُولُ للساكنِ ، وربَّما قالَ للجَارِ : إنَّ فى الدارِ امرأةً بها حَمْلٌ . والوَحْمَى ربَّما أسْقَطَتْ مِنْ رِيحِ القِدْرِ الطَّيِّبة ! فإذَا طَبخْتُمْ فَرُدُّوا شَهْوَتَها ، ولو بِغَرْفَةٍ أو لَعْقَةٍ ، فإنَّ النفْسَ يردُّها اليَسِيرُ ! فإنْ لم تَفعلْ ذلكَ بعد إعْلاَمِى إيَّاكَ ، فكَفَّارَتُكَ – إنْ أسْقَطَتْ – غُرَّةٌ : عَبدٌ أو[4] أَمَةٌ ، ألْزَمْتَ ذلك نَفْسَكَ أمْ أبَيْتَ!

قالُ : فكانَ رُبَّما يُوافِى إلَى منزلِهِ مِنْ قِصَاعِ السُّكانِ والجِيرانِ ما يكفِيه الأيامَ ، وإنْ كانَ أكثرُهم يَفْطَنُ ويتغافَلُ .

وكانَ الكِنْدىُّ يقولُ لعيالِهِ : أَنتُم أحْسَنُ حالًا مِنْ أربابِ هَذِهِ الضِّياعِ : إنَّما لِكلِّ بَيْتٍ منهم لَوْنٌ واحدٌ . وعندكُم ألْوَانٌ !

قالَ : وكنتُ أتغدَّى عندَه يَوْما ، إذْ دخلَ عليه جَارٌ لهُ . وكانَ الجارُ لِى صديقًا. فلَمْ يَعْرِضْ عليه الغَدَاءَ . فاسْتَحْيَيْتُ أنَا منهُ . فقلتُ : لو أصَبْتَ معنَا ممَّا نأكلُ ! قالَ : قدْ واللَّهِ فَعَلْتُ . قالَ الكِنْدىُّ : ما بَعْدَ اللَّه شىءٌ[5] ! قالَ : فكَتَفَهُ واللَّه – يا أبَا عثمانَ – كَتْفًا لا يستطيعُ معهُ قَبْضًا ولا بَسْطًا ، وتَرَكَهُ ! ولوْ أكلَ لشَهِدَ عليهِ بالكُفْرِ ، ولكَان عندَه قد جَعَلَ معَ الله شيئًا !

قالَ عَمْرٌو : بَيْنَا أنا ذَاتَ يومٍ عِندَه ، إذ سَمعَ صَوْتَ انقلابِ جَرَّةٍ منَ الدارِ الأُخْرَى . فَصَاحَ : أىْ قِصَافُ ! فقالتْ مجيبةً لهُ : بِئْرٌ وحَيَاتِك ! فكانتِ الجاريةُ فى الذَّكاءِ ، أكْثَرَ منه فى الاسْتِقصاءِ .

---

(١) نَزَعَ قِمَعًا : ما على التمرة ونحوها ، وهو الذى تتعلق به .

(٢) شَحْشَحَان : صاحب الغيرة على حق يطلبه . (٣) القرّ : البَرد ، أى أصابه البرد .

(٤) غرة : الغرة : بياض فى وجه الفرس ، والعبد أو الأمة دية للجنين الذى أسقط .

(٥) انظر العقد الفريد (٦/ ١٤٢) .

(بين معبد والكندى فى حوار طويل)

قالَ مَعْبَدٌ : نزلنَا دَار الكِنْدِىِّ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ ، نُرَوِّجُ لهُ الكِراءَ ، ونَقْضِى له الحوائجَ ، ونَفِى له بالشَّرْطِ . قلتُ : قدْ فهِمتُ تَرْويجَ الكِرَاءِ ، وَقَضَاءَ الحوائجِ ، فما مَعْنَى الوفاءِ بالشَّرْطِ ؟ قالَ : فى شَرْطِهِ على السكَّانِ أَنْ يكونَ له رَوْثُ الدابَّةِ ، وبَعْرُ الشَّاةِ ، ونِشْوَارُ العَلُوفةِ[1] ، وألاَّ يُخْرِجُوا عَظْما، ولا يُخْرِجُوا كُسَاحةً ، وأنْ يكونَ له نَوَى التَّمْرِ ، وقُشُورُ الرُّمَّانِ ، والغَرْفَةُ مِن كلِّ قِدْرٍ تُطْبِخُ لِلْحُبْلى فى بَيْتِهِ !

وكانَ فى ذلِكَ يتنزَّلُ عليهمْ . فكانُوا لطِيبِهِ ، وإفْراط بُخْلِهِ ، وحُسْنِ حَدِيثِهِ ، يَحْتَمِلونَ ذلك[2] .

قال مَعْبَدٌ : فبيْنَا أنا كذلكَ ، إذْ قَدِم ابنُ عمٍّ لى وَمَعهُ ابنٌ لهُ ، إذَا رُقْعَةٌ منه قد جاءتْنى : إنْ كان مُقَامُ هذين القَادِمَيْن ليلةً أو لَيْلَتَيْن احْتَمَلْنَا ذلكَ، وإنْ كانَ إطماعُ السُّكانِ فى اللَّيْلة الواحدةِ يَجُرُّ علينا الطمعَ فى اللَّيالِى الكثيرة .

فكتبتُ إليهِ : ليسَ مُقامُهمَا عندَنا إلاَّ شَهْرًا أو نَحْوَه .

فكتبَ إلىَّ : إنَّ دَارَكَ بثلاثين دِرْهما . وأنتم سِتَّة ، لكلِّ رأس خَمْسةٌ . فإذْ قَدْ زِدتَ رَجُلَيْن ، فلا بدَّ من زيادةِ خَمْسَتَيْن . فالدارُ عليك من يَوْمِكَ هذَا بِأَربعينَ! .

فكتبتُ إليه : وما يَضُرُّك من مُقَامِهِما ، وثِقَلُ أبدانِهما علَى الأرضِ التى تَحْمِل الجِبال ، وثِقَلُ مُؤْنَتهما علىَّ دُونَكَ ؟ فاكتُبْ إلىَّ بِعُذْرك لأَعْرِفَهُ .

ولمْ أدْرِ أَنَّى أَهْجُمُ على ما هَجَمْتُ ، وأَنَّى أَقَعُ منهُ فيما وقعتُ !

فكتبَ إلىَّ : الخِصالُ الَّتى تَدْعُو إلى ذلك كثيرةٌ . وهِى قائمةٌ معروفةٌ : من ذلكَ سُرْعةُ امتلاءِ البَالُوعةِ ، وما فى تَنْقِيتِها منْ شِدَّةِ المُؤْنةِ . ومْن ذَلكَ أنَّ الأَقْدامَ إذا كَثُرَتْ ، كَثُرَ المَشْىُ على ظُهُور السُّطُوح المُطَيَّنة ، وعلَى أرْضِ البُيُوتِ المُجَصَّصةِ[3] ، والصعودُ على الدَّرَج الكثيرةِ : فَيَنْقَشِرُ لذلكَ الطينُ، ويَنْقَلِعُ الجِصُّ ، ويَنْكَسِرُ العَتَبُ ، مع انْثناءِ الأجذاعِ ، لكَثْرةِ الوطْءِ، وتكسُّرِها لِفَرْطِ الثِّقَلِ! وإذَا كَثُر الدُّخولُ والخُرُوجُ ، والفَتْحُ والإغْلاقُ ، والإقْفَالُ وجَذْبُ الأقْفالِ، تهشَّمتِ الأبوابُ ، وتَقَلَّعتِ الرَّزَّاتُ .

وإذَا كَثُر الصِّبيانُ ، وتضاعَفَ البَوْشُ[4] ، نُزِعتْ مساميرُ الأبوابِ ، وقُلِعتْ كلُّ ضَبَّةٍ ، ونُزِعتْ كلُّ رَزَّةٍ ، وكُسِرَتْ كلُّ جَوْزَة ؛ وحفِرَ فيها آبار الدَّدَنِ[5] ، وهَشَمُوا بَلاَطَها بالمَدَاحِى[6] . هذَا مَع

---

(١) نِشْوَارُ العلُوفة : ما تبقيه الدابة من العلف . (٢) انظر عيون الأخبار (٣/ ٢٨١ ، ٢٨٢) .

(٣) المُجَصَّصة : جصص البناء : أى طلاه بالجص ، والجص هو الجبس وهو خام من كبريتات الكالسيوم .

(٤) البَوْشُ : الجماعة في كثرة واختلاط وتطلق على الغوغاء . (٥) الدَّدَن : اللعبُ واللهو .

(٦) المَدَاحِى : المدحاة خشبة يدحو بها الصبى فتمر على الأرض لا تأتى على شىء إلا اجتحفته وهى لعبة يلعب بها أهل مكة وهى أحجار كالأقراص وتحفر حفرة بقدرها فيتنحون عنها قليلا ثم يدحون بتلك الأحجار إلى تلك الحفرة فإن وقع فيها الحجر فقد غلب صاحبها وإن لم يقع غُلِبَ .

تخريبِ الحِيطانِ بالأوْتادِ، وخَشَبِ الرُّفُوفِ .

وإذَا كَثُر العِيَالُ والزُّوَّارُ ، والضِّيفانُ والنُّدَمَاءُ ، احتِيجَ مِنْ صَبِّ الماء ، واتِّخاذِ الحِبَبَةِ القاطِرةِ ، والجِرَارِ الرَّاشِحةِ ، إلَى أضْعَافِ ما كانوا عليه . فكَمْ مِنْ حَائطٍ قد تأكَّلَ أسْفَلُه ، وتناثَرَ أعلاه ، واستَرْخَى أساسُه ، وتداعَى بُنْيَانُه ، مِنْ قَطْرِ حُبٍّ ، ورَشْح جَرٍّ ، ومِنْ فَضْلِ مَاء البِئر ، ومِنْ سُوءِ التَّدْبيرِ .

وعلى قَدْرِ كَثْرتِهم يَحْتاجُونَ من الخبيزِ والطبيخِ ، ومن الوَقُودِ والتَّسْخِينِ . والنارُ لا تُبْقِى ولا تَذَرُ . وإنَّما الدُّورُ حَطَبٌ لهَا . وكلُّ شيءٍ فيها مِنْ مَتَاعٍ فهوَ أكْلٌ لهَا . فكَمْ مِنْ حريقٍ قَدْ أتَى علَي أصْلِ الغَلَّةِ ، فكلَّفْتُمْ أهلَها أغْلَظَ النَّفقةِ . وربَّما كانَ ذلكَ عِنْدَ غايةِ العُسْرةِ ، وشِدَّةِ الحالِ . وربمَّا تَعدَّتْ تلكَ الجِنَايَةُ إلَى دُورِ الجيرانِ ، وإلَى مُجَاوَرَةِ الأبدانِ والأموالِ

(رب الدار وبليته من السكان)

فلو تَرَكَ الناسُ حِينئذٍ ربَّ الدارِ وقَدْرَ بليَّتِهِ ، ومِقْدَارَ مُصِيبتِه ، لكانَ عَسَى ذلكَ أنْ يكونَ مُحْتَمَلًا . ولكنَّهُم يتشاءَمُونَ به ، ولا يزالُون يَسْتَثْقِلونَ ذِكْرَهُ ، ويُكْثِرُون مِنْ لائِمتهِ وتَعْنِيفِهِ! .

نعمْ ، ثُم يتَّخذُونَ المطابخَ فى العَلالِيِّ علَى ظُهُورِ السُّطُوحِ ، وإنْ كانَ فى أرضِ الدارِ فَضْلٌ ، وفى صَحْنِها متَّسَعٌ ؛ مَعَ ما فِى ذلكَ منَ الخطَارِ بالأنْفُسِ ، والتَّغْرِيرِ بالأموالِ ، وتعَرُّضِ الحُرَمِ ليلةَ الحَرِيقِ لأهلِ الفَسادِ ، وهُجُومِهم معَ ذلكَ علَى سرٍّ مكْتومٍ ، وخَبىءٍ مَسْتُورٍ ، منْ ضَيْفٍ مُسْتَخْفٍ ، ورَبِّ دارٍ مُتَوارٍ ، ومِنْ شَرابٍ مَكْرُوهٍ[1] ، ومِن كِتابٍ مُتَّهَمٍ[2] ، ومِنْ مالٍ جَمٍّ أرِيدَ دَفْنُهُ ، فأعْجَلَ الحريقُ أهلَه عَنْ ذلك فيه ، ومِنْ حَالاتٍ كَثِيرة ، وأمورٍ لا يُحِبُّ الناسُ أن يُعْرَفُوا بهَا .

ثُم لا يَنْصِبُونَ التَّنَانِير[3] ، ولا يُمَكِّنُونَ للقُدُورِ ، إلاَّ علَى مَتْنِ السَّطْحِ ، حيثُ ليسَ بينَها وبينَ القَصَبِ والخَشَبِ إلاَّ الطينُ الرَّقيقُ ، والشيءُ لا يَقِى . هذَا مَعَ خِفَّة المُؤْنَةِ فى إحْكامِها ، وأمْنِ القُلُوبِ منَ المَتَالِفِ بسببِها .

فإنْ كنتُم تُقْدِمُونَ علَى ذلكَ مِنَّا ومنْكم وأنتُم ذاكِرُونَ ، فهذا عَجَبٌ ! وإنْ كنتُم لم تَحْفِلُوا بمَا عليكُم فى أموالنَا ، ونَسِيتُمْ ما عليكُم فى أموالكُم ، فهذَا أعْجَبُ ! .

ثُم إنَّ كثيرًا مِنْكُمْ يُدَافِعُ بالكِراءِ ، ويُمَاطِلُ بالأدَاءِ . حتَّى إذَا جُمِعتْ أشْهُرٌ عليه ، فَرَّ وخلَّى أربَابها جِياعًا ، يتندَّمُونَ علَى ما كانَ مِنْ حُسْنِ تقاضِيهِم وإحْسَانِهم . فكانَ جزاؤُهُم وشُكْرُهمُ اقْتطاعَ حُقُوقِهم ، والذَّهَابَ بأقْواتِهم .

---

(١) شَراب مَكْرُوه : يقصد به الخمر وهو محرم شرعاً . (٢) كتاب متهم : المقصود رسالة مرتاب ومشكوك فى أمرها .

(٣) التَّنانِير : جمع تنور ، وهو ما يخبز فيه .

ويسكنُها الساكِنُ حينَ يَسْكُنُها وقدْ كَسَحْنَاهَا ونظَّفنَاهَا ، لِتَحْسُنَ فى عَيْنِ المستأجِرِ ، ولِيَرْغَبَ فيهَا النَّاظرُ . فإذَا خَرَجَ تَرَكَ فِيها مَزْبَلةً وخَرَابًا ، لا تُصْلِحُه إلاَّ النَّفَقةُ المُوجِعَةُ .

ثُم لاَ يَدَعُ مَتْرَسًا[1] إلا سَرَقَهُ ، ولاَ سُلَّمًا إلا حَمَلهُ ؛ ولا نُقْضًا[2] إلاَّ أخَذَهُ ، ولاَ بَرَّادَةً إلاَّ مَضَى بهَا معهُ . ولا يَدَعُ دَقَّ الثَّوبِ ، والدَّقَّ فى الهاوَنِ والمِيجَانِ ، فى أرضِ الدارِ .

ويَدُقُّ علَى الأجْذَاعِ والحواضِنِ والرَّواشِنِ[3]

وإنْ كانتِ الدارُ مُقَرْمَدَةً[4] أو بالآجُرِّ مَفْرُوشَةً ، وقد كانَ صاحِبُها جَعَلَ فى ناحيةٍ منها صَخْرةً ، ليكُونَ الدَّقُّ عليهَا ، ولِتَكُونَ واقِيةً دُونَها ، دعاهُمُ التهاوُنُ والقَسْوَةُ ، والغِشُّ والفُسُولَةُ[5] ، إلَى أنْ يَدُقُّوا حَيْثُ جَلَسُوا ، وإلَى ألاَّ يَحْفِلُوا بمَا أفْسَدُوا ! لم يُعْطِ قَطُّ لذلكَ أرْشًا[6] ، ولا استَحلَّ صاحبَ الدارِ ، ولا استغفرَ اللَّه مِنْه فى السِّرِّ! .

ثُم يَسْتَكْثِرُ مِنْ نَفْسِه فى السَّنَةِ إخراجَ عَشَرةِ دارهمَ ، ولا يستكثرُ مِنْ ربِّ الدَّارِ ألْفَ دينارٍ فى الشِّراءِ . يَذْكُرُ مَا يَصِيرُ إلينَا معَ قلَّتِه ، ولاَ يذكرُ ما يصيرُ إليه معَ كَثْرتِه ! .

هذَا ، والأيَّامُ الَّتِى تَنْقُضُ المُبْرَمَ ، وتُبْلِى الجِدَّةَ ، وتُفَرِّقُ الجَمِيعَ المُجْتَمِعَ، عامِلةٌ فى الدُّورِ ، كما تَعْمَلُ فى الصُّخورِ ، وتأخذُ مِنَ المنازِلِ ، كمَا تأخُذُ مِنْ كلِّ رَطْبٍ ويابِسٍ ، وكمَا تَجْعَلُ الرُّطْبَ يابسًا هَشِيمًا ، والهَشِيمَ مُضْمَحِلاً .

ولانْهِدَامِ المنازِلِ غَايةٌ قريبةٌ ، ومدَّةٌ قصِيرةٌ . والساكنُ فيهَا هو كانَ المتمتِّعَ بها ، والمنتفِعَ بمرافِقِهَا . وهُو الذى أبْلَى جِدَّتَها وتَحلاَّها . وبه هَرِمَتْ وذهبَ عُمُرُها ، لِسُوءِ تَدْبيره .

فإذَا قَسَمْنا الغُرْمَ عندَ انْهِدَامِها بإعادتهَا ، وبعدَ ابتنائهَا ، وغُرْمَ ما بين ذلِكَ منْ مَرَمَّتِها وإصلاحهَا ؛ ثُم قَابَلْنا بذلكَ ما أخَذْنا مِنْ غَلاَّتِها ، وارتْفَقْنَا[7] بِهِ منْ إكْرائِها ، خَرجَ علَى المُسْكِنِ منَ الخُسْرانِ ، بِقَدْرِ ما حَصَلَ للسَّاكِنِ منَ الرِّبْحِ . إلاَّ أنَّ الدَّراهمَ التى أخْرَجْناهَا مِنَ النَّفقةِ كانتْ جُمْلةً ، والَّتى أخَذْنَاهَا علَى جِهةِ الغَلَّةِ جاءتْ مُقَطَّعةً .

وهذَا مَعَ سُوءِ القضاءِ ، والإحْوَاجِ إلَى طفولِ الاقْتِضاءِ ، ومعَ بُغْضِ السَّاكِنِ للمُسْكِنِ ، وحُبِّ المُسْكِنِ للسَّاكِنِ ؛ لأنَّ المُسْكِنَ يُحِبُّ صِحَّةَ بدَنِ الساكنِ ، ونَفَاقَ سُوقِه ، إنْ كَانَ تَاجِرًا ، وتَحَرُّكَ صِنَاعتِه ، إنْ كانَ صانِعًا ؛ ومَحَبَّةِ الساكِنِ أن يَشْغَلَ اللهُ عنهُ المُسْكِنَ كيفَ شاءَ : إن شاءَ شَغَلَه بِعَيْنِه ، وإنْ شَاءَ بزمانِهِ ، وإنْ شاءَ بِحَبْسٍ ، وإن شَاءَ بمَوْتٍ! .

ومَدَارُ مُنَاهُ أنْ يُشْغَلَ عنهُ . ثم لا يبالى كيفَ كانَ ذلكَ الشُّغْلُ ! إلاَّ أنَّه كلَّما كانَ أشدَّ كان

---

(١) مَتْرَس : خشبة أو حديدة توضع خلف الباب لإحكام إغلاقه .
(٢) النقض : البناء المهدم .
(٣) الرواشن : الرّف ، والنافذة .
(٤) مُقَرْمَدَة : القرمد كل ما طُلى به للزينة كالزعفران والجص .
(٥) فسل الرجل فسولة : جبن وضعف وساء رأيه .
(٦) الأرش : ما يعطى تعويضا عن النقص والعيب .
(٧) ارْتَفَق به : انتفع واستعان .

أحبَّ إليه ، وكان أجْدَرَ أَنْ يأمَنَ ، وأخْلَقَ لأَنْ يَسْكُنَ . وعلى أنَّه إنْ فَتَرَتْ سُوقُه ، أو كسَدَتْ صناعَتُه ، ألحَّ فى طَلَبِ التَّخْفِيفِ منْ أصلِ الغَلَّةِ ، والحطِيطَةِ ممَّا حَصَلَ عليهِ من الأُجْرةِ . وعلَى أنَّهُ إنْ أَتاهُ اللهُ بالأَرْبَاحِ فى تجارتِهِ ، والنِّفاقِ فى صناعتهِ ، ولم يَرَ أن يَزِيدَ قيراطًا فى ضَرِيبتِهِ ، ولا أنْ يُعَجِّل فَلْسًا قبلَ وَقْتِهِ .

(مساوئ السُّكَان)

ثُم إنْ كانتِ الغَلَّةُ صحاحًا ، دَفَعَ أكْثَرَهَا مُقَطَّعَةً . وإنْ كانَتْ أنْصافًا وأرباعًا ، دَفَعَها قُراضَةً مُفَتَّتة . ثم لا يَدَعُ مُزأبَقًا[1] ، ولا مُكَحَّلًا ، ولاَ زائِفًا ، ولا دِينارًا بَهْرَجًا ، إلا دَسَّهُ فيه ، ودلَّسهُ عليه ، واحتالَ بكلِّ حِيلةٍ ، وتأتَّى له بكلِّ سَبَبٍ . فَإنْ ردُّوا عليه بعدَ ذلكَ شيئًا ، حَلَفَ بالغَمُوسِ[2] إنَّه لَيْسَ مِنْ دَرَاهِمِه ، ولا مِن مالِهِ ، ولا رآه قطُّ ، ولا كانَ فى مِلْكِهِ .

فإنْ كان الرسولُ جاريةَ ربِّ الدار أفْسَدَها . وإن كانَ غلاما خَدَعَهُ . هذَا مع الإشْرافِ علَى الجِيرانِ ، والتَّعَرُّضِ للجارَاتِ ، ومعَ اصْطِيادِ طُيُورِهم، وتَعْرِيضِنَا لِشِكَايتِهِم! .

وربَّما استضعفَ عُقُولَهم ، وطَمِعَ فى فَسادِهم وغَبْنِهم . فلاَ يَزَالُ يَضْرِبُ لهُم بالأسْلافِ[3] ، ويُغْرِيهم بالشَّهَوَاتِ ، ويفتَحُ لهم أبوابًا منَ النَّفقاتِ ، ليَغْبِنَهم ، ويَرْبَحَ عليهم . حتى إذَا استَوْثَقَ منهُم ، أعْجَلَهم ، وحَزَقَ بهِم[4] ، حتى يتُّفُوه ببيع بَعْضِ الدارِ ، أو باسْتِرْهانِ الجميعِ ، ليَرْبَح مَعَ الذَّهابِ بالأصلِ السَّلامةَ – مَعَ طُولِ مُقَامِهِ – مِنَ الكراءِ . وربَّما جَعَله بَيْعا فى الظاهرِ ، وَرَهْنًا فى الباطنِ ، فحينئذ يَفَظُّ بهم دُونَ المُهْلة ، ويدَّعِيها قَبْلَ الوَقْت! .

وربّما بلغَ منَ استضعافِهِ ، واسْتِثْقالِه لأِداءِ الكِرَاء ، أنْ يدَّعِيَ أنَّ له شَقِيصًا[5] ، وأَن له يَدًا ، لِيصيرَ خَصْمًا مِنَ الخُصومِ ، ومنازِعًا غيرَ غاصبٍ .

ورُبَّما اكْتَرَى المنزلَ وفيه مَرَمَّةٌ ، فاشْتَرَى بعضَ ما يُصْلِحها . ثم يَتَوَخَّى عاملًا جَيِّدَ الكُشوةِ ، وجِيرانًا أصحابَ آنِيةٍ وآلةٍ . فإذَا شُغِلَ العاملُ وغَفَلَ ، اشْتَمَلَ على كلِّ ما قَدَر عليه ، وتركهم يَتَسَكَّعون ! .

وربَّما استأجَرَ إلى جَنْبِ سجْنٍ ، ليَنْقُبَ أهْلُه إليه ، وإلى جَنْب صَرَّاف ليَنْقُبَ عليه ، طَلَبًا لِطُولِ المُهْلة والسَّتْر ، ولِطولِ المُدَّةِ والأَمنِ .

وربَّما جَنَى الساكنُ ما يَدْعُو إلَى هَدْمِ دارِ المُسْكِن : بأَنْ يَقْتُل قَتِيلا ، أو يَجْرَحَ شَرِيفا . فَيَأتِى

---

(١) مُزأبَقًا : مطلي بالزئبق ، وهذا من تزييف الدراهم بطلائها به .

(٢) بالغَمُوس : اليمين الغموس اليمين الكاذبة ؛ لأنها تغمس صاحبها فى النار .

(٣) الأسلاف : جمع سلف ، وهو إقراضهم المال .

(٤) حَزَقَ : أحاطت بهم مكايده من كل جانب وشدد عليهم . (٥) شَقِيصًا : الشقيص : نصيب معلوم غير مفروز .

السلطانُ الدَّارَ، وأربابُها إمَّا غُيَّبٌ، وإمَّا أيتامٌ، وإمّا ضُعَفاءُ؛ فلاَ يَصْنعُ شيئًا دُونَ أنْ يُسَوِّيَها بالأرضِ!.

وبَعْدُ فالدُّورُ مُلَقَّاةٌ، وأربابُها مَنْكوبُونَ ومُلَقَّوْنَ. وَهُمْ أشدُّ الناسِ اغْترارًا بالناسِ، وأبْعَدُهُم غايةً مِنْ سَلامةِ الصُّدُورِ. وذلِكَ أنَّ مَنْ دفَعَ دارَه ونِقْضَها وسَاجَها[1] وأَبْوَابهَا، مَعَ حَدِيدِها وذَهَبِ سُقُوفِها، إلَى مَجْهُول لا يُعْرَف، فقد وَضَعَها فى مَوَاضِعِ الغَرَر، وعلى أعْظَمِ الخَطَر. وقدْ صَارَ فى مَعْنَى المُودِعِ، وصارَ المُكْتَرِى فى مَوْضِعِ المُودَعِ. ثمَّ لَيْسَتِ الخِيانَةُ وُسوءُ الوِلايةِ إلَى شيءٍ منَ الودائعِ أسْرَعَ منهَا إلى الدُّورِ.

وأيْضًا، إنَّ أصْلَحَ السُّكَّانِ حالا مَنْ إذا وَجَدَ فى الدارِ مَرَمَّةً، فَفَوَّضُوا إليه النفقةَ، وأنْ يَكونَ ذلكَ مَحْسوبًا لهُ عنْدَ الأهِلَّة، يُشَفِّفُ فى البِناءِ، ويَزيدُ فى الحِسابِ.

«فَما ظَنُّك بقَوْمٍ هؤلاءِ أصْلَحُهُم، وهُمْ خيارُهمَ!»

«وأنتُم أيضًا اكْتَرَيْتُمْ مُسْتَغَلاَّتِ غيرنا بأكْثَرَ مما اكْتَرَيْتُمُوهاَ منَّا. فسِيرُوا فينَا كسِيرتِكُم فيهِم، وأعْطُونا مِنْ أنفسِكم، مِثْلَ ما تُريدونَه مِنَّا».

«وربمَّا بَنَيتم في الأرضِ. فإذَا صارَ البِنَاءُ بُنْيانَكُم، وإنْ كانتْ الأرضُ لغيرِكم، ادّعيتُمُ الشَّرِكَةَ، وجَعَلْتُموه كالإجارةِ، وحتَّى تُصَيِّرُوه كتِلادِ[2] مالٍ، أو مَوْرُوثِ سَلَفٍ»

«وجُرْمٌ آخَرُ: وهُو أنَّكم أهلكْتُم أصُولَ أموالِنا، وأخْرَبْتُم غَلاَّتِنا، وحَطَطْتُم بسُوءِ مُعاملتِكُم أثمانَ دُورِنا ومُسْتَغَلاَّتِنا، حتَّى سَقَطتْ غَلاَّتُ الدُّورِ منْ أعينِ المَيَاسِيرِ وأهلِ الثَّروةِ، ومِنْ أعْيُنِ العَوَامِّ والحِشْوَةِ[3]، وحتَّى يُدافِعُوكُم بكُلِّ حِيلةٍ، وصَرَفُوا أموالَهم في كلِّ وَجْهٍ، وحتَّى قالَ عُبَيْدُ ابنُ الحَسَنِ قَوْلًا أرسَلَه مَثَلًا، وعادَ علينَا حُجَّةً وضَرَرا. وذَلِكَ أنَّه قالَ: غَلَّةُ الدارِ مُسْكَةٌ، وغلَّة النَّخْلِ كَفَافٌ. وإنمَّا الغَلَّةُ غلَّةُ الزَّرْعِ والنَّسُولَتَيْنِ[4].

«وَإنمَّا جَرَّ ذلكَ علينَا حُسْنُ اقتضَائِنَا، وصَبْرُنا علَى سُوءِ قَضَائِكم، وأنتُم تُقَطِّعونَها علينَا، وهي عليكُم مُجْمَلَة، وتَلْوُونَنَا بها، وهيَ عليكم حَالَّةٌ. فصارتْ لذلكَ غَلاَّتُ الدُّورِ - وإنْ كانَتْ أكْثَرَ ثمنًا ودَخْلًا - أقلَّ ثمنًا وأخبَثَ أصْلًا مِنْ سَائِرِ الغَلاَّتِ».

وأنتُم شرٌّ علينَا من الهِنْدِ والرُّومِ، ومِنَ التُّركِ والدَّيْلَم[5]، إذْ كُنْتُم أحْضَرَ أذىً، وأدْوَمَ شرًّا» «ثُم كانتْ هذه صِفَتَكم وحِلْيَتُكم ومُعَامَلَتُكم، في شيءٍ لَا بدَّ لكُم منه، فكَيفَ كنتُم لو امتُحِنتُم بما لَكُمْ عَنْهُ مَنْدُوحَةٌ، والوجوهُ فيه مُعْرِضةٌ، وأنتُم فيه بالخِيارِ، وليسَ عليكُمْ طريقُ الاضْطِرارِ؟».

---

(١) سَاجَها: الساج: نوع من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضاً، والمقصود هنا الخشب وهو فى بلاد الهند.

(٢) كتِلادِ: التلاد: كل مال قديم.

(٣) الحِشْوَة: الحشوة من الناس: رذالتهم.

(٤) النَّسولَتَيْن: الإبل والغنم، والمقصود بغلتهما أولادهما.

(٥) الديلم: جيل من الترك.

« وهذاَ معَ قَوْلكُم : إنَّ نُزُولَ الكراءِ ، أصْوَبُ مِنْ نُزولِ دُورِ الشِّراءِ . وقلتُم : لأَنَّ صاحِبَ الشِّراء قد أغْلَقَ رَهْنَه ، وأشْرَطَ نَفْسَه ، وصارَ بها مُمْتَحَنًا ، وبثمنها مُرْتَهَنًا » .

« ومَنِ اتخذَ دارًا فقدْ أقامَ كَفِيلًا لا يَخْفِرُ[1] ، وزَعِيمًا لا يَغْرَمُ . وإنْ غابَ عنهَا حَنَّ إليها . وإنْ أقَامَ فيها ألْزَمَتْه المُؤَنَ ، وعَرَّضَتْه للفِتَنِ ، إنْ أساءُوا جِوارَه ، وأنْكِرَ مَكَانُه ، وبَعُدَ مُصلاًّه ، وماتَ عنهُ سُوقُه ، وتفاوتتْ حوائجُه ، ورأَى أنَّه قد أَخْطَأَ في اخْتِيارِهَا علَى سِواها ، وأنَّه لم يُوَفَّق لِرُشْدِه حينَ آثَرَهَا علَى غَيْرِها . وإنَّ مَنْ كانَ كذلكَ فهو عَبْدُ دَارِه ، وخَوَلُ[2] جَارِه . »

« وإنَّ صاحِبَ الكِرَاءِ الخِيارُ في يَدِهِ ، والأمرُ إليهِ : فكلُّ دارٍ هي له مُتَنَزَّهٌ ، إنْ شاء ومَتْجرٌ ، إنْ شاءَ ، ومَسْكَنٌ ، إنْ شاء . لم يَحْتَمِل فيها اليسيرَ من الذُّلِّ ، ولا القليلَ من الضَّيْم ، ولا يَعْرِفُ الهَوَانَ ، ولا يُسامُ الخَسْفَ ، ولا يَحْتَرِسُ منَ الحُسَّادِ ، ولا يُدَارِى المُتَعَلِّينَ . »

« وصاحبُ الشِّرَاء يَجْرَعُ المُرَارَ ، ويُسْقَى بكأسِ الغَيْظِ ، ويكُدُّ لِطَلبِ الحوائج ، ويَحْتَمِل الذِّلَّةَ ، وإنْ كانَ ذا أنَفَةٍ . إن عَفَا علَى كَظْم . ولا يُوَجَّهُ ذلكَ منهُ إلاَّ إلَى العَجْزِ . وإنْ رَامَ المُكَافأة ، تَعَرَّضَ لأكثَرَ مما أَنكرهُ . قالَ رسولُ الله ﷺ : الجارَ قبلَ الدارِ ، والرَّفيقَ قبلَ الطَّرِيقِ »[3] .

« وزعمتُم أنَّ تَسَقُّطَ الكِراء أهْوَن ، إذْ كانَ شيئًا بَعْدَ شيء ، وأن الشَّدائِد إذَا وقعتْ جُمْلةً جاءتْ غَامِرةً للقوةِ . إذا تَقَطَّعُ وتَفَرَّقُ ، فليسَ يَكْتَرِثُ لها إلاَّ مَنْ يَفْقِدُهَا ويَذْكُرها . »

« ومالُ الشِّراء يَخْرُج جُمْلَةً ، وثُلْمَتُه[4] في المالِ واسعةٌ ، وطَعْمَتُه نَافِذةٌ . وليسَ كلُّ خَرْقٍ يُرْقع ، ولا خارجٍ يَرْجعُ » .

« وأنَّه قدْ أمِنَ منَ الحَرَقِ والغَرَقِ ، ومَيْل أسْطُوَانِ[5] ، وانْقِصافِ سَهْم ، واستِرْخاءِ أسَاسٍ ، وسُقوطِ سُتْرةٍ ، وسُوءِ جِوارٍ ، وحَسَدِ مُشَاكِل[6] » .

« وقلتُم إنْ كانَ تاجِرًا ، فتصريفُ ثَمنِ الدَّارِ في وجُوهِ التِّجاراتِ أربَحُ ، وتحويلهُ في أصنَافِ البِيَاعاتِ أكْيَسُ . وإنْ لم يَكُنْ تاجرًا ، ففيماَ وَصَفْناه لهُ ناهٍ ، وفيما عَدَدْنا لهُ زاجرٌ » .

« فلم يمنعكم حُرْمَةُ المُسَاكَنِة ، وحَقُّ المُجَاوَرة ، والحاجةُ إلَى السُّكْنَى ، ومُوَافَقَةُ المنزل . أنْ أشرتُم على النَّاسِ بتركِ الشِّراءِ !: وفي كَسَاد الدُّورِ فَسَادٌ لأثمانِ الدُّورِ ، وجَرَاءةٌ للمستأجر ، واسْتِحْطاطُ من الغَلَّةِ ، وخُسْرانٌ في أَصْلِ المالِ » .

« وزعمتُم أنَّكُم قد أحسنتُم إلينا حينَ حَثَثْتُمُ الناسَ علَى الكِرَاءِ ، بلْ إنمَّا أردتُم أنْ تَضُرُّونا

---

(١) يَخْفِرُ : يفى بالذمة والعهد .
(٢) خَوَلُ : خادم . أى يخدم جاره .
(٣) ضعيف . أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير (١/ ١٤٩) .
(٤) ثُلْمَتُه : الثلمة : الخلل فى الحائط وغيره .
(٥) الأسطوان : العمود
(٦) مشاكل : مشابه ونظير .

بِتَزْهِيدِكُمْ في الشراءِ ! » .

« وليسَ يَنْبَغِي أن يُحْكَم علَى كلِّ قومٍ إلا بسبِيلهم ، وبالَّذى يَغْلِبُ عليهِم منْ أعمالِهم .

فهذِه الخِصالُ المذمومةُ كلُّها حُجَّةٌ عليكُم ، وكلُّها داعيةُ تُهمَتِكُم ، وأخْذِ الحَذَرِ منكُم ولَيْسَتْ لكُم خَصْلةٌ مَحْمُودة ، ولا خَلَّةٌ فيما بَيْنَنَا وبينَكُم مَرْضِية ! » .

« وقد أرَيْناكم أنَّ حُكْمَ النازِلينَ كحكمِ المقيمين ، وأنَّ كلَّ زِيادةٍ فلهَا نصِيبٌ منَ الغَلَّة » .

« ولو تغافلتُ لكَ - يا أخاَ أهْلِ البَصْرةِ - عَنْ زِيَادةِ رَجُلين ، لم أَبْعِدْكَ - علَى قَدْرِ ما رأيتُ منكَ - أنْ تُلْزِمنى ذلكَ - فيما يتبيَّن - حتَّى يصيرَ كِرَاءُ الواحدِ ككِراء الأَلْفِ ، وتَصِيرَ الإقامةُ كالظَّعْنِ[1] ، والتفريغُ كالشُّغْلِ[2] ! » .

« وعلَى أنِّى لو كُنْتُ أمْسَكتُ عن تَقَاضِيكَ ، وتغافلتُ عنْ تَعْريفكَ ما عليْك ، لذَهَبَ الإحسانُ إليكَ باطِلًا ، إذ كنتَ لا ترى للزِّيادة قَدْرًا . »

« وقد قالَ الأوَّلُ :

∴ والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ ∴[3]

وقالَ الآخرُ :

تَبَدَّلْتُ بالمعروفِ نُكْرًا وربَّما تنكَّر للمعروفِ مَنْ كانَ يُكْفَرُ

« أنتَ تُطالبُنِى بِبُغْضِ المُعْتَزِلة[4] للشِّيعةِ[5] ، وربما بَيْنَ أهْلِ الكُوفَةِ والبَصْرةِ ، وبالعداوةِ التي بينَ أسَدٍ وكِنْدَةَ ، وبمَا في قَلْبِ السَّاكِن منَ استثقالِ المُسْكِن ! وسيعين الله عليكَ والسلامُ » .

(رأى ابن غزوان في الكندي)

قالَ إسماعيلُ بنُ غَزْوانَ : لله دَرُّ الكِنْدِيِّ ! ما كانَ أحْكَمَه ، وأحْضَرَ حُجَّتَهُ ، وأنْصَحَ جَيْبَه[6] ، وأدْوَمَ طَرِيقَتَهُ ! رأيتُهُ وقد أقبلَ علَى جَمَاعةٍ ، ما فيهَا إلاَّ مُفْسِدٌ ، أو مَنْ يُزَيِّنُ الفَسَادَ لأهلِه : منْ شاعرٍ يؤُدِّه أنَّ الناسَ كلَّهم قد جَازُوا حَدَّ المُسرِفين ، إلى حُدُودِ المجانينَ ! ومِنْ صاحِبِ تَنْقِيعٍ[7] واستِعْكالٍ ، ومِنْ مَلاقٍ[8] مُتَقَرِّبٍ .

---

(١) كالظَّعن : كالرحيل .

(٢) التفريغ كالشغل : أى فراغ المسكن منهم كشغله بهم .

(٣) لعنترة فى ديوانه (١٥٢) ، وصدره :

∴ لُبِّئْتُ عَمْرًا غيرَ شاكرِ نعمتى ∴

(٤) المُعْتَزِلة : فرقة من المتكلمين يخالفون أهل السنة فى بعض المعتقدات على رأسهم واصل بن عطاء الذى اعتزل حلقه الحسن البصرى .

(٥) الشيعة : فرقة كبيرة من المسلمين اجتمعوا على حب علىٍ وآله وأحقيتهم بالإمامة .

(٦) أنْصَحَ جَيْبَه : يقال : ناصح الجيب : أى نقى القلب لا غش فيه .

(٧) تنقيع : التنقيع : هو استخراج كل خير من الناس ثم نبذهم وتركهم كما ينبذ النفل . (٨) مَلاق : من يعطى بلسانه ما ليس فى قلبه .

فقالَ : تُسَمُّونَ مَنْ مَنعَ المالَ منْ وُجُوهِ الخَطاءِ وحَصَّنَه خَوفًا مِن الغِيلَةِ ، وحَفِظَةُ إشْفَاقًا من الذِّلةِ ، بخيلًا ! تُريدونَ بذلكَ ذَمَّهُ وشَيْنَه ! وتُسمُّونَ مَنْ جَهِل فَضْلِ الغِنَى ، ولم يَعْرِفْ ذِلَّة الفقْرِ ، وأعطَى في السَّرَفِ ، وتهاونَ بالخَطَاءِ ، وابتذلَ النعمةَ، وأهانَ نفسَه بإكرامِ غَيْرِه ، جَوَادًا ! تريدون بذلكَ حَمْدَه ومَدْحَه !

فاتَّهِمُوا علَى أنْفُسكُم مَنْ قدَّمَكُمْ على نَفْسِه ، فإنَّ مَنْ أخْطَأَ عَلَى نَفْسهِ ، فهوَ أجدَرُ أنْ يُخْطِئَ علَى غَيْرِه ، ومَنْ أخطأَ في ظَاهِرِ دُنْيَاهُ ، وفيما يُوجَدُ في العَيْن ، كان أجْدَرَ أنْ يُخْطِئَ في باطِن دِينِه ، وفيما يُوجَدُ بالعقلِ . فمدحتُم مَنْ جَمَعَ صُنوفَ الخَطَاء ، وذَمَمْتُمْ مَنْ جَمَع صُنُوفَ الصَّوابِ ! فاحْذَروهُم كلَّ الحَذَر ، ولا تأمَنُوهُم علَى حالٍ !

(الكندي يتحدث عن المال)

قالَ إسماعيلُ : وسَمعتُ الكِنْدِيَّ يقولُ : إنمَّا المالُ لِمَنْ حَفِظَهُ ، وإنمَّا الغِنَى لمنْ تمسَّك بِه . ولحِفْظِ المالِ بُنِيَتِ الحِيطانُ ، وغُلِّقَتِ الأبوَابُ ، واتُّخِذتِ الصَّناديقُ ، وعُمِلَتِ الأقْفالُ ، ونُقِشتِ الرُّسُومُ والخَوَاتيمُ ، ويُعَلَّمُ الحِسابُ والكتَابُ .

فَلِم تَتَّخِذُونَ هذه الوِقاياتِ دُونَ المالِ ، وأنتم آفَتُه ؟ وأنتم سُوسُه ؟ وقد قالَ الأولُ : أُحرسْ أخاكَ إلاَّ مِنْ نَفْسِهِ .

ولكن احْسُبْ أنَّك قَد أخذتَه في الجَوَاسِقِ[1] ، وأودَعْتَه الصُّخُورَ ، ولم يَشْعُرْ به صَديقٌ ، ولا رَسُولٌ ولا مُعِينٌ ، مَنْ لَكَ بألاَّ تَكُونَ أشَدَّ عليه منَ السَّارِقِ ، وأعْدَى عليه مِنَ الغاصِبِ ؟ واجْعَلْكَ قد حَصَّنْتَه مِنْ كلِّ يَدٍ لا تُمْلِكُه ، كيفَ لَكَ مِنْ أنْ تُحَصِّنه منَ اليَدِ التي تملِكُه ، وهِي عليه أقْدَرُ ، ودَوَاعِيها أكْثَرُ ؟

وقدْ عَلمنا أنَّ حِفْظَ المالِ أشَدُّ من جَمْعِه . وهلْ أُتِيَ الناسُ إلا مِنْ أنفسِهم ، ثم ثِقَاتِهم ؟ والمالُ لمن حَفِظَهُ والحسرةُ لمنْ أتْلَفهُ . وإنْفَاقُه هُو إتْلافُه ، وإنْ حَسَّنتُموهُ بهذَا الاسِم ، وَزَيَّنْتُموهُ بهذَا اللقبِ.

وزعمتُم أنمَّا سَمَّينا البُخْلَ صَلاَحًا ، والشُّحَّ اقتِصَادًا ، كماَ سَمَّى قَوْمٌ الهزيمةَ انحِيازًا ، والبَذَاءَ عارِضَةً ، والعَزْلَ عَن الوِلايةِ صَرْفًا ، والجائِرَ على أهْلِ الخَرَاجِ[2] مُسْتَقْصِيًا !

بل أنتُم الذينَ سَمَّيتُمُ السَّرَفَ جُودًا ، والنَّفْجَ[3] أرْيَحِيَّة ، وسُوءَ نَظَرِ المَرْءِ لنفسِه ولِعَقِبِه كرمًا!

---

(١) الجَوَاسِق : جمع جوسق ، والمراد به هنا الحصن .

(٢) الخَرَاج : الأتاوة التى تؤخذ من أموال الناس على الأرضين فى البلاء التى افتتحت صلحًا وهى البلاد الخراجية . وأهل الخراج من يدفعونه .

(٣) النفج : الكبر والعظمة ، والنافج : المتعظم المتكبر .

قال رسولُ الله ﷺ : « ابْدَأْ بمَنْ تَعُولُ »[1]. وأنتَ تُرِيدُ أنْ تُغْنِي عِيالَ غَيْرِكَ بإفْقَارِ عِيالِكَ ، وتُسْعِدَ الغَرِيبَ بِشِقْوَةِ القَرِيبِ ، وتَتَفضَّلَ على مَنْ لا يَعْدِلُ عنك ، ومَنْ لو أعطيته أبدًا ، لأخَذَ أبدًا !

قدْ عَلِمْتُم ما قالَ صاحبُنا لأخِي تَغْلِبَ ، فإنّه قالَ : « يا أخَا تَغْلِبَ ، إنِّي واللَّه كُنْتُ أجْرِي ما جَرَى هَذَا الغَيْلُ ، وأجْرِى وقْد انقطعَ النَّيْلُ . إنِّى واللَّهِ لو أعطيتُك لمَا وصَلْتُ إليكَ حتَّى أتجاوزَ مَنْ هُو أحقُّ بذلكَ منكَ . إنِّى لو أمكنتُ الناسَ مِنْ مالى لنَزَعُوا دَارِي طوبةً طوبةً :! إنَّه واللَّهِ ما بَقَى معي مِنْهُ إلا مَا منعتَه الناسَ ». ولكنِّى أقولُ : واللهِ إن لَوْ أمْكَنْتُ الناسَ مِنْ نَفْسِي ، لادَّعَوْا رِقِّى بعدَ سَلْبِ نِعْمَتِي.

قالَ إسماعيلُ :وسمعتُه يقولُ : عَجِبْتُ لِمَنْ قَلَّتْ دَراهِمهُ ، كيفَ يَنَامُ ! ولَكنْ لا يَسْتَوِي مَنْ لم يَنَمْ سُرورًا ، ومَنْ لمَ ينَمْ غمًّا .

ثُم قَال : قَال رسولُ الله ﷺ في وصيةِ المرءِ يَوْمَ فَقْره وَحَاجَتِه ، وقَبْلَ أن يُغَرغِر : « الثُّلُثُ . والثُّلُثُ كَثِير » .[2] _ فاستَحْسَنَتِ الفُقَهَاءُ ، وتمنَّى الصالحون أنْ تَنْقُصَ مِنَ الثُّلث شيئًا ، لاستكثار رسول الله ﷺ الثُّلُثَ ، ولقوله : « إنَّكَ إنْ تَدَعْ عيالَكَ أغنياءَ ، خَيْرٌ مِن أنْ تَدَعَهم عَالةً يتكفَّفُون الناسَ »[3] .

ورسولُ الله ﷺ لم يَرْحَم عِيالنَا إلا بِفَضْل رَحْمَتِه لنا . فكيفَ تَأْمُرونِي أنْ أوثِر أنْفُسَكُمْ على نَفْسي ، وأقَدِّمَ عيالكم علَى عِيالى ، وأن أعتقِدَ الثَّنَاءَ بدلًا مِن الغِنى ، وأنْ أكْنِزَ الريحَ ، وأصْطَنِعَ السَّرابَ ، بدلًا من الذهبِ والفِضَّةِ !

قَال إسماعيلُ : وسمعتُه يقُول لعيالِهِ وأصحابِهِ : اصبِرُوا عنَ الوَطَب عندَ ابتدائِهِ وأوائِلِهِ، وعَنْ باكُوراتِ الفاكهةِ ، فإنَّ للنفسِ عندَ كلِّ طارقٍ نَزْوَةً ، وعندَ كلِّ هَاجِم نَزْوَةً.

وللقادِم حلاوةٌ وفَرْحَةٌ ، وللجَديدِ بَشَاشَةٌ وغِرَّة[4] ، فإنَّك مَتَى رَدَدْتَها ارتدَّت ، ومتى رَدَعْتَها ارْتَدَعَتْ .

والنفسُ عَزُوفٌ ، ونَفُورٌ ألُوفٌ . وما حَمَّلتها احْتَمَلتْ ، وإن أهْمَلْتَها فَسَدتْ . فَإن تكُفَّ جميعَ دَواعِيها ، وتحْسِمْ جميعَ خَوَاطِرهَا ، في أوَل ردَّةٍ ،صارتْ أقلَّ عَدَدًا ، وأضْعَفَ قُوةً . فإذَا أثَّرَ ذلكَ فيهَا ، فَعِظْها في تِلكَ البَاكُورَةِ بالغَلاءِ والقلَّة ، فإنَّ ذِكْرَ الغَلاءِ والقلَّة حُجَّةٌ صحيحةٌ ، وعِلةٌ عامِلةٌ في

---

(١) أخرجه البخاري فى الزكاة . باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (٣/ ٣٤٥) وفى موضع آخر . ومسلم فى الزكاة . باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٦) والترمذى والنسائى وأبو داود والدارمى وأحمد .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخارى فى المرضي ، باب ما رخص للمريض أن يقول . . . . (١٠/ ١٢٨) وفى مواضع أخرى . ومسلم فى الوصية . باب الوصية بالثلث (٥ ، ٨) وأصحاب السنن ومالك والدارمى وأحمد .

(٤) غِرَّة : اغتر فلان بكذا : أى خدع به والمقصود أن الجديد يخدع الإنسان ويستميله .

الطَّبيعةِ.

فإذَا أجابَتْك في الباكُورةِ ، فَسُمْها مِثْلَ ذلكَ في أوائِل كَثْرتِهَا واضرِبْ نُقْصانَ الشَّهْوَةِ ونُقْصانَ قُوَّة الغَلَبةِ ، بمقدارِ ما حَدَثَ لها مِنَ الرُّخْصِ والكثرةِ . فلستَ تَلْقَى علَى هذَا الحسابِ مِنْ مُعالجةِ الشَّهْوةِ عندكَ ، إلاَّ مثلَ ما لقِيتَ منها في نَومِك ، حتى تَنْقضي أيامُ الفاكِهة ، وأنتَ على مِثْل ابتداءِ حالِك ، وعلى أول مُجَاهَدَتِك لِشهْوَتِك !

ومتَى لم تَعُدَّ أيضًا الشَّهْوَةَ فِتْنةً ، والهَوَى عَدْوًا ، اغتررتَ بهما، وضَعُفْتَ عنهُما ، وَأَتَمنتَهُما علَى نفسِك . وهُما أحْضَرُ عدوٍّ ، وشَرُّ دَخِيلٍ .

فاضمنوا لي النَّزْوَةَ الأُولَى ، أضْمَنْ لكُم تمامَ الصَّبْرِ ، وعَاقبةَ اليُسْرِ ، وثَبَاتَ العِزِّ في قُلُوبِكُم ، والغِنَى في أَعْقَابِكُم ، ودَوَامَ تعظيم النَّاسِ لكُم ، فَإنّه لو لَم يكُنْ مِن منَفْعَةِ الغِنَى إلاَّ أَنَّكَ لاَ تزالُ مُعَظَّمًا عندَ مَنْ لم يَنَلْ منكَ قطُّ دِرْهمًا . لكانَ الفَضْلُ في ذلكَ بيِّنًا ، والرِّبْحُ ظاهِرًا .

ولو لم يكنْ مِنْ بَرَكَةِ الثَّروةِ ، ومِنْ مَنْفَعةِ اليُسْرِ ، إلاّ أنَّ ربَّ المالِ الكثيرِ لو اتَّصلَ بِمَلِك كَبيرٍ ، في جلسائِهِ مَنْ هُوَ أَوْجَبُ حُرْمَةً ، وأَقْدَمُ صُحْبةً ، وأصدَقُ مَحَبَّةً ، وأَمْتَعُ إمْتاعًا ، وأكثرُ فَائِدةً وصَوابًا ، إلاَّ أنّه خَفيفُ الحَالِ ، قليلُ ذَاتِ اليدِ ، ثُمَّ أَرادَ ذلكَ الملكُ أنْ يُقَسِّمَ مَالًا ، أو يُوزِّعَ بينهم طُرَفًا ،[1] لَجَعلَ حَظَّ المُوسِرِ أَكْثَرَ ، وإنْ كانَ في كلِّ شيءٍ دُونَ أصحابِهِ ، وحظَّ المُخِفِّ أَقَلَّ ، وإنْ كَانَ فِي كلِّ شيءٍ فَوْقَ أصحابِهِ .

قَد ذكرنَا رسالةَ سَهْلِ بنِ هارونَ ، ومذهبَ الجِزَاميِّ ، وقِصَصَ الكِنديِّ ، وأحاديثَ الحارِثيِّ ، وطرائِفَ نِحَلِهِم ، وبدائعَ حِيلِهِم .

(قِصَّةُ مُحمَّد بنِ أبي المؤَمِّلِ)

قلتُ لمحمَّدِ بنِ أبي المُؤَمِّلِ : أراكَ تُطْعِمُ الطَّعامَ وتَتَّخذهُ ، وتُنْفِقُ المالَ وتَجُودُ بِهِ . وليسَ بين قِلَّةِ الخبز وكثرتِهِ كَثِيرُ رِبْحٍ . والناسُ يُبَخِّلونَ مَنْ قلَّ عددُ خُبْزِهِ ، ورأوْا أرْضَ خِوانِهِ . وعَلى أنِّي أرى جَماجمَ مَنْ يأكلُ معكَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَد خُبزِك .

وأنتَ لو لم تتكلَّفْ ، ولم نحْمِلْ على مالِكَ بإجادتِهِ ، والتَّكْثيرِ منهُ ، ثم أَكلتَ وحْدَكَ لم يَلُمْكَ الناسُ ، ولم يكترِثُوا لذلك مِنكَ ، ولم يَقْضُوا عليكَ بالبُخْلِ ، ولا بالسَّخاءِ، وعِشْتَ سَلِيمًا مَوْفورًا ، وكنتَ كواحدٍ مِنْ عُرْضِ النَّاسِ .

وأنتَ لم تُنْفِقِ الحَرَائِبَ[2] وتَبْذُلِ المصُونَ ، إلاَّ وأنتَ راغبٌ في الذِّكْرِ والشُّكرِ ، وإلا لِتَحْزُنَ

---

(١) طُرَفاً : جمع طرفة ، وهو الحديث المستحسن المعجب .

(٢) الحَرَائِبَ : جمع حريبة ، وهى مال الرجل الذى يعيش منه .

الأجرَ .

فقَدْ صِرْناَ لِقلّةِ عَدَدِ خُبْزِك مِنْ بَيْنِ الأشْياءِ ، نَرْضَى لكَ منَ الغَنيمةِ بالإيابِ ، ومِنْ غُنْمِ الحمدِ والشكرِ ، بالسَّلامةِ منِ الذَّمِّ واللَّوْمِ ! فَزِدْ في عددِ خُبْزِك شيئًا ، فإنَّ بتلكَ الزيادةِ القليلةِ ينقلِبُ ذلكَ اللومُ شُكْرًا وذلك الذمُّ حمدًا .

أَعلِمْتَ أنّكَ لستَ تَخْرُجُ منْ هذاَ الأمرِ بَعْدَ الكُلْفَةِ العظيمةِ سالمًا ، لا لَكَ ولا عليكَ ؟ فانْظُرْ في هذا الأمرِ ،رَحِمَكَ اللهُ .

(ابن أبي المؤمل يرد)

قالَ : يا أبا عثمانَ ، أنت تُخْطِئُ ، وخطأُ العاقلِ أبدًا يكونُ عظيمًا ، وإنْ كانَ في العُذْرِ قليلًا ، لأنَّه إذا أخطأ بتَفَقُّهٍ وإحكامٍ . فعلَى قدرِ التَّفكُّر والتكلُّف[1] يَبْعُدُ مِنْ الرشَاد ، ويذهبُ عَنْ سَبيلِ الصَّوابِ .

وما أشُكُّ أنَّكَ قد نَصَحْتَ بمَبْلَغِ الرأيِ منكَ . ولكنْ خَفْ ما خَوَّفتْكَ ، وإنَّه مَخُوفٌ ! بلِ الذِي أصْنَعُ أَدَلُّ علَى سَخَاءِ النَّفْسِ بالمأكُولِ ، وأدَلُّ علَى الاحتيالِ ليبالغُوا ، لأن الخُبْزَ إذا كَثُرَ علَى الموائِد ، وَرَّثَ ذلكَ النَّفْسَ صُدُودًا ، ولأنَّ كلَّ شيءٍ منِ المأكولِ وغَيْرِ المأكولِ ، إذا ملأَ العينَ ملأَ الصَّدْر . وفي ذلكَ مَوْتُ الشَّهوةِ، وتسكينُ الحركةِ !

ولو أنَّ رجلًا جَلسَ على بَيْدَرٍ[2] تَمرٍ فائقٍ ، وعلى كُدْسِ كُمَّثْرَى مَنْعُوتٍ ، وعلَى مائة قِنوٍ[3] مَوْزٍ مَوْصُوفٍ ، لم يكنْ أكْلُه إلاَّ علَى قَدرِ اسْتِطرافِهِ ، ولم يكنْ أكْلُه إلاَّ علَى قَدْر أكلِهِ ، إذا أُتِيَ بذلكَ في طَبَقٍ نظيفٍ ، ومع خَادمٍ نَظيفٍ ، عليه منْدِيلٌ نظيفٌ .

وبعدُ فأصحابنا آيسُون ، واثِقونَ مُسْتَرسِلُون ، يعلمونَ أنَ الطَّعَامَ لهم اتُّخِذَ ، وأنَ أكْلَهم لهُ أوْفَقُ منْ تَمْزيقِ الَخدمِ والأتْباعِ له . ولو احتاجُوا لَدَعَوْا به ، ولم يَحْتَشِمُوا منهُ ، ولكَان الأقَلُّ منْهُم أن يُجَرِّبُوا ذلك المرةَ والمرتيْنِ ، وألَّا يَقْضوا عليْنا بالبخْلِ دُونَ أنْ يَرَوه . فإن كَانُوا مُحْتَشِمِينَ وقد بَسَطْنَاهُمْ ، وسَاءَ ظَنُّهُم بنَا ، ومعَ ما يَرَوْن منَ الكُلْفَةِ لهم ، فهولاَءِ أصحابُ تجَنٍّ وتَسَرُّع . وليسَ في طاقتي إعْتابُ المتجنِّى ، ولا رَدُّ المتسرِّع .

قلتُ لهُ : إنِّي قد رأيتُ أكْلَهُم في منازلِهم ، وعند إخْوانِهم ، وفي حالاتٍ كثيرةٍ ، ومواضِعَ مُخْتلفةٍ . ورأيتُ أكْلَهم عِنْدك ،فرأيتُ شيئًا مُتفاقِمًا . فاحْسُبْ أنَّ البُخلَ عليهم غالبٌ ، وأنّ الضَّعْفَ لهم شامِلٌ ، وأنَّ سُوءَ الظَّن يُسْرع إليهم خَاصَّةً . ثم لا تُدَاوِى هذا الأمْرَ بمّا لا مُؤْنَةَ فيه ؟ وبالشَّيْءِ الذِي

---

(١) التكلُّف : ارتكاب المشقة فى البحث والنظر .

(٢) بَيْدَر : الجمع بيادر ، وهو الجرن .

(٣) القنو : غصن له شعب وفى النخل هو التام بشماريخه ورطبه ، وفى القرآن الكريم : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ [الأنعام: ٩٩] واستعار القنو هنا للموز .

لا قَدْرَ له ؟ أو تَدَعُ دعاءَهُم ، والإرْسالَ إليهم ، والحِرْصَ علَى إجابتهم ؟.

والقومُ ليسَ يُلْقُون أنفسَهم عليكَ ، وإنمّا يجيئُوك بالاسْتِحبابِ منْكَ . فإنْ أحببتَ أن تَمْتَحِنَ ما أقولُ ، فدعْ مُوَاترةَ الرُّسل والكُتُبِ ، والتَّغَضُّبَ عليهم إذَا أبطئوا . ثُم انْظُرْ .

قالَ : فإنَ الخبزَ إذَا كَثُرَ علَى الخُوانِ ، فالفاضلُ مماً يأكلونَ لا يَسْلَمُ من التَّلَطُّخِ والتغْمِيرِ[1] والجَرْدَقَةُ الغَمِرَةُ ، لا أقْدِرُ أن أنْظُر إليهَا . وأستحْيِ أيضًا من إعادِتهَا. فيذهبُ ذلك الفَضْلُ باطلًا . والله لا يحبُّ الباطلَ !

قلتُ : فإنَ ناسًا يأمُرُون بمَسْحِه ، ويجعلون الثَّريدةَ منهُ . فلو أخذتَ بِزيِّهم ، وسلكتَ سَبيلهم ، أتىَ ذلكَ لك على ما تُرِيدُ ونريدُ .

قالَ : أفَلَسْتُ أعلمُ كيفَ الثريدةُ ؟ ومِنْ أيِّ شيءٍ هِيَ ؟ - وكيفَ أمنعُ نفسي التَّوَهُّمَ ، وأحُولُ بينهُما وبينَ التذكيرِ ؟ ولعلَّ القومَ أنْ يعرفُوا ذلكَ على طُولِ الأيَّام، فيكونَ هذا قبيحًا .

قلتُ : فتأمُرُ به للعيالِ ، فيقومُ الحُوّارَى[2] المتلطخُ مَقَام الخُشْكارِ النَّظيفِ[3]. وعلَى أنَّ المسْحَ والدَّلْك يأتي علَى ما تَعلَّقَ به الدَّسَمُ .

قالَ : عِيَالي - يَرْحمكَ اللهُ ! - عِيَالاَن : واحدٌ أُعْظِمهُ عَنْ هَذا وأرفَعهُ عنهُ ،وآخَرُ لم يبلغْ عندي أنْ يُتْرَفَ بالحُوَّارَى !

قلتُ : فاجعلْ إذًا جميعَ خُبْزِك الخُشْكَارَ ، فإنَّ فَضْلَ ما بينهُ وبينَ الحُوَّارىَ في الحُسْنِ والطِّيب ، لا يقومُ بفَضْلِ ما بينَ الحمدِ والذمِّ .

قالَ:فها هنَا رأيٌ هو أعدلُ الأمورِ وأقْصَدُها : وهو أنَّا نُحْضِرُ هذهِ الزيادةَ منَ الخبزِ علَى طَبَقٍ ، ويكونُ قريبًا حيثُ تنالُه اليَدُ ، فلاَ يَحْتَاجُ أحدٌ مَعَ قُرْبِه منْهُ إلَى أنْ يَدْعُوَ بِهِ ؛ ويكونُ قُرْبُه مِنْ يَدِهِ كَثْرةً على مائِدتِه .

قلتُ: فالمانِعُ من طلبهِ هُو المانِعُ منْ تحويلِه . فأطِعْنى وأخْرِجْ هذهِ الزيادةَ منْ مالِكَ كيفَ شِئْتَ .

واعلَم أنَّ هذهِ المُقَايسةَ ، وطُولَ هذه المُذاكرةَ ، أضَرُّ علينَا مما نَهَيْتُك عنهُ، وأردتُكَ على خلافهِ. فلمَّا حضَرَ وقتُ الغَدَاءِ صَوَّتَ بغُلامِه - وكانَ ضَخْمًا، جَهيرَ الصَّوتِ، صاحِبَ تَقْعِيرٍ[4] ، وتفْخِيمٍ وتَشْدِيقٍ[5] ، وَهَمْزٍ[6] وجَزْمٍ[7] : يا مُبَشِّر! هاتِ مِنَ الخُبْزِ تَمامَ عدَدِ الرُّءوسِ!

---

(١) التَّغْمِير : التلوث بدسم اللحم ، يقال : غمرت اليد : تعلق بها ريح اللحم أو دسمه .
(٢) الحُوّارَى : خبز الدقيق الأبيض .
(٣) الخُشْكار : دقيق خشن غير منخول .
(٤) تَقْعِير : إخراج الكلام من أسفل الحلق .
(٥) تشديق : فتح فمه واتسع ، أو لوى شدقه ليفصح .
(٦) الهمز : المقصود أنه كان يبالغ ويؤثر فى سامعه بضغط كلماته .
(٧) الجزم : القطع فصوته لا يخالطه تردد

قلت :ومَنْ فَرَضَ لَهُمْ هذهِ الفَريضةَ؟ ومن جَزَم عليهم هذا الجزمَ؟ أرأيتَ إنْ لم يُشْبِعْ أحَدَهُم رَغيفُه، أليسَ لابُدَّ مِنْ أنْ يُعَوِّل علَى رغيفِ صاحبِهِ، أو يتنَحَّى وعليه بَقِيَّةٌ ، أو يُعَلِّقَ يدهُ منتظرًا للعادةِ؟ فقدْ عادَ الأمرُ، وَبَطَلَ ما تناظرْنا فيهِ.

قالَ:لا أعلمُ إلا تَرْكَ الطعامِ البَتَّةَ أهْوَنَ علينا مِنْ هذه الخُصُومة !

قلتُ: هذَا ما لاَ شَكَّ فيهِ. وقدْ عَلِمْتَ عندِى بالصوابِ، وأخذتَ لنفسكَ بالثِّقةِ، إنْ وَفَيْتَ بهذَا القولِ.

(من أقوال ابن أبى المؤمل)

وكانَ أكْثَرَ ما يقولُ: يا غلامُ، هاتِ شيئًا من قَلِيَّةٍ[1]، وأقِلَّ منَها ،وأَعِدَّ لنَا ماءً باردًا، وأكْثِر منه! وكانَ يقولُ:قدْ تغيَّر كلُّ شيءٍ من أمْرِ الدنْيا، وحَالَ عن أمرِه وتبدَّلَ، حتى المؤاكلةَ. قاتَلَ اللّه رجالًا كنا نؤَاكِلُهم : ما رأيتُ قَصْعةً قطُّ رُفِعَتْ مِنْ بينِ أيديهم إلاَّ وفيهَا فَضْل!

وكانُوا يَعْلَمُون أنَ إحضارَ الجَدْيِ إنمّا هو شيءٌ مِنْ آيين الموائِد الرَّفيعة ، وإنمّا جُعِل كالعاقبةِ والخاتِمةِ ، وكالعَلامة للبَشْر والفَراغِ ، وأنَّه لم يُحْضَر للتَّمْزيقِ والتَّخْريبِ ، وأنَ أهْلَه لو أرادُوا به السَّوءَ لَقَدَّمُوه قبلَ كلِّ شيءٍ ،لِتَقَع الحِدَّةُ به . بل ما أكلَ منهُ إذا جِيء به إلاَّ العابِثُ ، والاَّ الذي لو لم يَرَه لقد كان رَفَعَ يدهُ ، ولم يَنْتَظِرْ غَيره ! ولذلكَ قالَ أبو الحارثِ جُمَّينٌ ، حين رآه لا يُمَسُّ : هذاَ المدفوعُ[2] عنهُ ! ولولاَ أنَّه على ذلك شاهَدَ الناسَ لما قالَ ما قالَ .

ولقْد كانُوا يتحامَوْنَ بيضةَ البُقَيْلةِ[3] ، ويَدَعُها كلُّ واحدٍ منهُم لصاحِبه ، حتَّى إنَّ القَصْعَةَ لقَدْ كانتْ تُرْفَعُ وإنَّ البَيْضَ خاصَّةً لعلَى حالِهِ . وأنتَ اليومَ إذَا أردتَ أنْ تُمَتعَ عينك بنظرةٍ واحدةٍ منها ، ومِنْ بَيْضِ السُّلاَّءَة[4] ، لم تقدرْ علَى ذلكَ !

لا جَرَمَ لقَدْ كانَ تَرَكَه ناسٌ كثيرٌ ، ما بهم إلاَّ أنْ يكونُوا شُرَكاَء مَنْ ساءتْ رعَتُه.

وكانَ يقولُ : الآدامُ أعداءٌ للخُبْزِ ، وأعدَاها له المالِحُ . فلولاَ أنّ الله انتقمَ منهُ ، وأعانَ عليه بِطَلَبِ صاحِبِه الماءَ وإكثاره منهُ ، لظننتُ أنَّه سيأتي علَى الحَرْثِ والنَّسْلِ[5]!

(يدعو إلى شرب الماء)

وكانَ معَ هذا يقول : لو شَرِبَ الناسُ الماءَ علَى الطَّعام ما اتَّخموا . وأقَلُّهُم عليه شُرْبًا أكْثَرُهُم عنهُ تَخَمًا . وذلكَ أنَّ الرجلَ لا يَعْرِفُ مقدارَ ما أكلَ حتى يَنَالَ منَ الماءِ . وربّما كانَ شَبْعَانَ وهُو لا

---

(١) قَلِيَّة : سبق تخريج معناها . وهى المرقة من لحوم الإبل وأكبادها .

(٢) المدفوع : أى هذا الذى لا تناله الأيدى بالأذى . وهنا التعجب .

(٣) البقيلة : قطعة من اللحم مستديرة مثل البيضة .

(٤) السلاءة : طائر أغبر طويل الرجلين .

(٥) انظر عيون الأخبار (٣/ ٢٧٨) .

يَدْرِي . فإذاً ازدادَ علَى مقدارِ الحاجة بَشِمَ[1]. وإذَا نالَ منَ الماءِ شيئًا بَعْدَ شيء ، عَرَّفهُ ذلكَ مقدارَ الحاجاتِ ، فلم يَزِدْ إلا بِقَدْرِ المَصْلَحةِ .

والأطباءُ يَعْلَمونَ ما أقولُ حَقًّا . ولكنَّهم يعلمونَ أنَّهم لو أخَذُوا بهذاَ الرأيِ لتعطَّلُوا ، ولَذَهَبَ المَكْسَبُ ! وما حاجةُ الناسِ إلَى المُعَالِجِينَ إذَا صَحَّتْ أبدانُهم ؟

وفي قَوْلِ جميعِ النَّاسِ : إنّ ماءَ دِجْلَةَ أمْرأُ منَ الفُرات وإن ماءَ مِهْرَان أمْرأُ من ماءِ نهر بَلْخَ ، وفي قولِ العربِ : هذاَ ماءُ نَمِير يَصْلُحُ عليه المالُ ، دليلٌ على أنَّ الماءَ يُمْرِئُ ، حتَّى قالوا : أنَّ الماءَ الذي يكونُ عليه النَّقَّاطَاتُ أمْرَأ منَ الماءِ الذي يَكُونُ عليه القَيَّاراتُ[2]

فعليكُم بِشُرْبِ الماءِ علَى الغَدَاء ، فإنَ ذلكَ أمْرَأُ .

وكان يقولُ : ما بالُ الرجُلِ إذا قالَ : ياغلامُ أسقِنى ماءً ، أو أسْقِ فلانًا ماءً ، أتاهُ بقُلّةٍ على قَدْرِ الرِّىِّ ؟ فإذاً قالَ : أطْعِمني شيئًا ، أو قالَ : هاتِ لفلانٍ طعامًا ، أتاهُ من الخُبْزِ بما يَفْضِلُ عنِ الجماعةِ ، والطعامُ والشرابُ أخَوَان متُحَالِفَان ومُتَآزِران ؟

وكانَ يقولُ : لولاَ رُخْصُ الماءِ وغَلاَءُ الخُبْزِ لَمَا كَبَلُوا على الخبزِ ، وزَهَدُوا في الماءِ . والناسُ أشَدُّ شيءٍ تعظيمًا للمأكولِ إذَا كَثُرَ ثمنهُ ، أو كانَ قليلًا في أصلِ مَنْبته ، وموضعِ عُنْصرهِ . هذا الجَزَرُ الصافي ، وهذا البَاقِلىُّ الأخْضَرُ العباسِيُّ ، أطْيَبُ مِنْ كُمَّثْرَى خُرَاسَانَ ، ومن المَوْزِ البُسْتانيّ ! ولكنَّهم لِقَصر هِمَّتهم لا يَتَشَهَّوْنَ إلاَّ على قدرِ الثَّمَنِ[3] ، ولا يَحِنُّونَ إلَى الشيءِ إلاَّ علَى قَدْرِ القِلَّةِ . وهذهِ العَوَامُّ في شَهَوَاتِ الأطعِمة إنّمَا تذهبُ معَ التقليدِ ، أو مع العادةِ ، أو علَى قَدْرِ ما يَعْظُمُ عندهَا شأنُ الطَّعام .

وأناَ لستُ أطْعِم الجَزَرَ المسلوقَ بالخلِّ والزَّيتِ والمُرِّىِّ[4] ، دونَ الكمأة بالزُّبْدِ والفُلْفُلِ[5] ، لمكانِ الرُّخصِ، أو لِمَوْضِع الاسْتِفْضال ، ولكِنْ لمكان طيْبِهِ في الحقيقةِ ، ولأنَّهُ مالحُ الطبيعةِ ، عَلِمَ ذلك مَنْ عَلِمَ ، وجَهِلَ ذلك مَنْ جَهِلَ !

(خدع واحتيال)

وكانَ إذَا كانَ في منزلهِ فربمّا دخلَ عليه الصديقُ لهُ ، وقد كانَ تقدَّمه الزائرُ أو الزائرانِ – وكان يَسْتَعْمِلُ على خُوانه من الخُدَعِ والمكايدِ والتدبيرِ ، ما لم يَبْلُغ بَعْضَه قَيْسُ بنُ زُهَيْر ، والمُهَلَّبُ بنُ أَبِى صُفْرَةَ ، وخَازِمُ بنُ أَبى خُزَيْمةَ[6] ، وَهَرْثَمَةُ بنُ أَعْيَنَ[7] . وكانَ عندَه فيه منَ الاحتيالِ ما لا يَعْرِفُه عَمْرُو بنُ

---

(١) البشم : الإكثار من الطعام حتى وصل إلى التخمة والسأم .

(٢) القار : الزفت : والنفط مزيج من الهيدروكربونات يحصل عليها بتقطير البترول الخام .

(٣) انظر عيون الأخبار (٣/ ٢٧٨ ، ٢٧٩) . (٤) المرى : ما يؤتدم به . (٥) الكَمْأة : نبات ينقض الأرض فيخرج كما تخرج الفطر .

(٦) خَازِمُ بن خُزَيْمة النهشلى ، من بنى صخر بن نهشل ، كان من ولاة خراسان ، وولى أيضاً عمان ، ومات ببغداد فعُزّى عنه أبو جعفر . المعارف . ١٨٤ وابنه خزيمة بن حازم كان قائدا ذا منزلة عند الخلفاء ، وولى الولايات . توفى خزيمة سنة ٢٠٣ . تاريخ بغداد (٣٤١) .

(٧) هَرْثَمَةُ بنُ أَعْيَنَ : أمير ، من القادة الشجعان . له عناية بالعمران . بنى فى «أرمينية» و «إفريقية» وغيرهما . عين والياً فى عهد الرشيد . مات محبوساً فى عهد المأمون . الأعلام (٨/ ٨١) .

العاص ؛ ولا المُغِيرةُ بنُ شُعْبة . وكان كثيرًا ما يُمْسِك الخلالَ بيدِهِ ، لِيُؤْيِسَ الداخلَ عليهِ منْ غَدائِه !-

فإذَا دخلَ عليه الصَّديقُ لهُ، وقْد عَزَمَ علَى إطعامِ الزَّائرِ والزائريْن قَبْلَهُ ، وضَاق صدرُه بالثالثِ-وإنْ كانَ قدْ دعَاه وطلبَ إليهِ - أرادَ أنْ يحتال له ، أو الرابعِ ، إن ابْتُلِي كلُّ واحدٍ منهُما بصاحبِهِ.

فيقولُ عندَ أولِ دخولِهِ ، وخَلْعِ نعلهِ ، وهُو رافُع صوتَه بالتَّنْويه وبالتَّشْنيع : هاتِ يا مُبَشِّرُ لفلانٍ شيئًا يَطْعَمُ منهُ ! هاتِ له شيئًا ينالُ منه ! هاتِ له شيئًا ! اتِّكالًا على خَجَله أو غَضَبِه أو أنَفَتِه ؛ وطَمَعًا فى أنْ يقولَ : قد فعلتُ !

فإنْ أخطأَ ذلكَ الشقِيُّ، وحُصِرَ ، وقالَ : قد فعلتُ ، وعلم أنّه قد أحرَزَه وَحَصَّله ، وألقاهُ وراءَ ظهرِهِ ، لم يَرْضَ أيضًا بذلكَ حتَّى يقولَ : بأىّ شىء تَغَدَّيْتَ ؟ فلا بُدَّ له منْ أن يكْذِبَ ، أو يَنْتَحِلَ المعاريضَ[1].

فإذَا استوثقَ منهُ رِبَاطًا ، وتَرَكهُ لا يستطيعُ أن يَتَرَمْرَم ، لم يَرْضَ بذلكَ حتَّى يقولَ فى حديثٍ لهُ : كنَّا عنْدَ فلانٍ ، فدخَل عليه فلانٌ ، فدعاهُ إلى غدائِه فامتَنع . ثُم بَدا لهُ فقالَ : فى طعامِكُم بُقَيْلَةٌ أنتم تُجيدونَها ؟

ثُم تناولَه ، فَلا يزالُ يزيدُ فى وَثَاقِه ، وفى سَدِّ الأبوابِ عليه ، وفى مَنْعِه البَدَوَاتِ . حتَّى إذا بَلَغَ الغَايةَ قالَ : يا مبشِّر ، أمَّا إذْ تغدَّى فلانٌ واكتفَى ، فهاتِ لنا شيئًا نَعْبَثُ به !فإذا وَضَعُوا الطعام ، أقبلَ على أشدِّهم حياءً ، أو علَى أشدِّهم أكْلا ، فسأله عن حديثٍ حَسَنٍ ، أو عن خَبَرٍ طويلٍ ! ولا يسألُه إلاَّ عن حديثٍ يحتاجُ فيه إلىَ الإشارةِ باليدِ أو الرأسِ ! كلُّ ذلكَ ليَشْغَلَه !

فإذا هُمْ أكَلُوا صَدْرًا ، أظهرَ الفُتُورَ والتَّشَاغُلَ والتَّنَقُّرَ[2] ، كالشَّبْعانِ الممتلئِ، وهُو فى ذلكَ غَيْرَ رافعٍ يَدَه ، ولا قاطعٍ أكْلَه ! إنّما هو النَّتْفُ بَعْدَ النتْفِ ، وتعليقُ اليدِ فى خَلَلِ ذلك !

فلاَ بُدَّ مِنْ أنْ ينقبِضَ بَعْضُهم ويرْفَعَ يَدَهُ . وربَّما شَمِلَ ذلكَ جماعَتَهم . فإذَا علِم أنَّه قدْ أحْرَزَهُمْ واحتالَ لهم ، حتى يَقْلَعَهُمْ مِنْ مواضعِهم مِنْ حَوَالِ الخُوَانِ ، ويُعيدَهُم إلى مَوَاضِعِهم مِنْ مجلِسهم ، ابتدأَ الأكْلَ ، فأكلَ أكلَ الجائِع المقْرورِ[3] !

(من فوائد الشرب على الريق)

وقالَ : إنّما الاكلُ تاراتٌ ، والشُّرْبُ تاراتٌ .

وكانَ كثيرًا ما يقولُ لأصحابِه ، إذَا بكَّروا عليهِ : لَم لا نَشْرَبُ أقداحًا علَى الرِّيقِ ، فإنّها تقتلُ الدِّيدانَ ، وتَحْفِشُ لأنفسِنَا قليلًا ؛ فإنَّها تأتى علَى جميعِ الفُضُولِ ، وتُشَهِّى الطعامَ بَعْدَ ساعةٍ ؟

---

(١) المعاريض : هى جمع معراض ، وهو للتورية بالشىء عن الشىء من غير تصريح به .

(٢) التنقر : الأخذ من ها هنا ومن ها هنا كالطائر الذى ينقر .

(٣) المقرور : القر البرد ، والجائع المقرور سريع للاندفاع للنهم للأكل .

وسُكْره أطْيبُ من سُكر الكِظَّةِ[1] .والشرابُ على المَلِيلَةِ بلاءٌ[2] . وهو بعدَ ذلكَ دليل على أنَّ نَبِيذى خالصٌ . ومَنْ لم يشربْ على الرِّيقِ فهوَ نِكْسٌ فى الفُتُوَّة ، ودَعِيٌّ فى أصحابِ النبيذِ ! وإنَّما يخَافُ على كَبِدِه مِنْ سَوْرةِ الشَّرابِ على الرِّيقِ مَنْ بَعُدَ عَهْدُه باللحمِ . وهذه الصُّبْحَةُ تَغْسِلُ عنكُم الأوْضارَ[3] ، وتَنْفِى التُّخَم . وليسَ دواءُ الخُمَارِ ، إلا الشُّربَ بالكِبارِ .

والأعْشَى كانَ أعْلَمُ به حيثُ يقولُ :

وكَــأْسٍ شَــرِبْــتُ عــلــى لَــذَّةٍ وأُخْــرى تَــدَاوَيْــتُ مِــنْــهــا بِــهَــا[4]

وهذا - حَفِظَكَ اللَّهُ - هُو اليومُ الذى كانُوا لاَ يعاينونَ فيه لُقْمة واحدةً ، ولا يدخلُ أجوافَهُم من النَّقْلِ ما يَزِنُ خَرْدَلةً ! وهُوَ يومُ سُروره التَّام ؛ لأنَّه قدْ ربحَ المَرْزِئَةَ ، وتمتَّع بالمُنَادَمةِ!

(مع سمكة وما حدث من ابن أبى المؤمل)

واشترى مَرَّةً شَبُّوطَةً[5] وهُو ببغدادَ ، وأخذهَا فائِقةً عظيمةً . وغَالَى بها ، وارتفعَ فى ثمنِها . وكانَ قد بَعُدَ عَهْدُه بأكلِ السَّمكِ ، وهوُ بَصْرِىٌّ لا يَصْبِر عنهُ . فكانَ قد أكْبَرَ أمْرَ هذه السَّمَكَةِ لكثرة ثَمنها ، ولِسِمَنها وعِظَمها وَلِشدَّةِ شهْوَتِهِ لها !

فحينَ ظنَّ عندَ نفسهِ انَّه قد خلاَ بها ، وتفرَّدَ بأطايبها ، وحَسَر عنْ ذِراعيهِ ، وصَمَدَ صَمْدَها ،هجمتُ عليه ومعي السِّدْرِىُّ !

فلماً رآهُ رأىَ الموتَ الأحْمَرَ ، والطاعونَ الجارِفَ ، ورأى قَاصِمَةَ الظَّهر ، وأيْقَنَ بالشَّرّ ، وعَلم أنهّ قد ابْتُلِىَ بالتنِّين[6] ! فلم يُلْبِثه السِّدْرِىُّ حتى قوَّرَ السُّرَّةَ بالمبَال[7] !

فأقبلَ علىَّ فقالَ لى : يا أبا عثمانَ ، السِّدْرِىُّ يُعجِبهُ السُّرَرَ ! فما فَصَلَتِ الكلمةُ مِنْ فيهِ حتَّى قَبَضَ علَى القَفَا ، فانتزعَ الجانِبَيْن جميعًا ! فأقبلَ علىَّ فقالَ : والسِّدْرِىُّ يُعْجِبه الأقْفَاءُ ! فَما فرغَ مِن كلامِه إلاَّ والسِّدْرِىُّ قد اجْتَرَفَ المَتْنَ كلَّه ! فقالَ : يا أبا عثمانَ ، والسِّدْرِىُّ يُعْجبه المُتُونُ !

ولم يَظُنَّ أنَّ السِّدْرِىُّ يعرِفُ فضيلة ذَنَبِ الشَّبُّوط وعُذوبَةَ لحمهِ . وظنَّ أنَّه سَيَسْلَم له. وظنَّ معرفةَ ذلكَ مِن الغامِضِ . فلم يدْرِ إلاَّ والسِّدْرِىُّ قد اكتسحَ ما علَى الوجهتين جميعًا ! ولولاَ أنّ السدرِىَّ أبْطَرهُ ، وأثْقَله ، وأكْمَدَهُ ، وملأ صَدْرَه ، وملأَهُ غيظًا ، لقَد كانَ أدْركَ معهُ طَرَفا ، لأنّه كانَ منَ الأَكَلَةِ . ولكنَّ الغَيْظَ كَانَ من أَعوانِ السِّدْرِىِّ عليه .

فلماً أكلَ السِّدْرِىُّ جميع أطايبها ، وَبقِىَ هو في النَّظَّارة ، ولم يبقَ في يده مِمَّا كان يأْمُلُه في تلكَ

---

(١) الكظة : الامتلاء من الأكل .
(٢) المليلة : الحر والحمى الباطنة .
(٣) الأوْضار : جمع وضر ، وهو الدرن .
(٤) الصبح المنير فى شعر أبى بصير (١٢١) .
(٥) شَبُوطة : الجمع شبوط وهو نوع من السمك .
(٦) بالتِّنين : نوع من الحيات من أعظمها كأكبر ما يكون منها . (٧) المبَال : محل البول .

السمكَةِ إلاَّ الغيظُ الشديدُ ، والغُرْمُ الثقيلُ ، ظنَّ أنَّ في سائِرِ السمكة ما يُشْبعهُ ، ويَشْفى من قَرَمِه . فبذلكَ كان عَزاؤُه . وذلكَ هُو الذي كانَ يُمْسِك بأرْماقِه[1] ، وحُشَاشاتِ نَفْسِهِ ! فلماً رأى السدرىَّ يَفْرِى الفَرِىَّ ، ويلتهِم التهامًا، قالَ : يا أبا عثمانَ ، السِّدرِىُّ يُعجِبُه كلُّ شيء !

وَتولَّد الغيظُ في جَوْفِهِ ، أقلقتْه الرِّعْدَةُ ، فَخَبُثَتْ نفسُهُ . فما زال يقيءُ ويَسْلَحُ ! ثم رَكبَتْهُ الحُمَّى!

وَصحَّت تَوْبتُه ، وتمَّ عَزْمُه في ألاَّ يُؤَاكِلَ رَغِيبًا أبدًا[2] ، ولا زَهِيدًا ، ولا يشترىَ سمكةً أبدًا ، رخيصةً ولا غاليةً ، وإن أهْدَوْها إليه ألاّ يقبلَها ، وإنْ وَجَدهَا مطروحةً لا يَمَسَّها . فهذا ما كانَ حضَرنَى مِنْ حديثِ ابنِ أبي المؤمّل . وقد مَاتَ . عَفَا الله عنَّا وعنهُ !

(قِصَّةُ أسَدِ بنِ جَانِى)

فأمَّا أسدُ بنُ جَانِى فكانَ يَجْعَلُ سَرِيرَه في الشِّتاءِ مِنْ قصبٍ مُقَشَّرٍ ، لأنَّ البراغيثَ تَزْلَقُ عنْ لِيطِ القَصَبِ[3] لِفَرْطِ لينِهِ ومَلاَسَتِه .

وكانَ إذَا دخلَ الصيفُ ، وحَرَّ عليه بيتُه أثارَهُ حتَّى يُغْرِقَ المِسْحَاةَ . ثم يَصُبَّ عليهِ جِرَارًا كثيرةً من ماءِ البئْرِ ، ويَتَوَطَّؤُهُ[4] حتَّى يَسْتَوِىَ.فلاَ يزالُ ذلكَ البيتُ باردًا ما دَام نَدِيًا .

فإذاَ امتدَّ بهِ النَّدَى ، ودَامَ بَرْدُه بدوامِهِ ، اكْتَفَى بذلكَ التَّبْريد صَيْفَتَهُ . وإنْ جَفَّ قبلَ انقضاءِ الصَّيْفِ ، وعادَ عليه الحرُّ ، عادَ عليهِ بالإثارةِ والصَّبِّ .

وكانَ يقولُ : خَيْشَتِى أرضٌ ، وماءُ خَيْشَتِى منْ بِئْرِى ، وبيتِى أبْرَدُ ، ومُؤْنَتِى أخَفُّ. وأنَا أفْضُلُهُمْ أيضًا بِفَضْلِ الحِكْمَةِ وجَوْدَةِ الآلةِ .

وكانَ طبيبًا فأكْسَدَ[5] مَرَّةً ، فقالَ لهُ قائلٌ : السَّنَةُ وبِئَةٌ ، والأمراضُ فاشيةٌ . وأنتَ عالمٌ، ولكَ صَبْرٌ و خِدْمةٌ ، ولكَ بيانٌ ومَعْرِفَةٌ . فَمِنْ أَينَ تُؤْتَى في هذاَ الكَسادِ ؟

قالَ : أمَّا واحدةٌ فإنّي عنْدَهُمْ مُسْلِمٌ . وقَدْ اعتقدَ القومُ قبلَ أنْ أتطبَّبَ ، لا بَلْ قَبْلَ أن أُخْلَقَ ، أنَّ المسلمينَ لا يُفْلِحونَ في الطِّبِّ ! واسْمِى أَسَدٌ ، وكانَ ينبغي أنْ يكونَ اسْمِى صَلِيبًا ، ومُرَايِلَ ، ويُوحَنَّا ، وبِيرَا . وكُنْيَتِى أبو الحارثِ ، وكانَ ينبغي أنْ تكونَ أبو عيسى ، وأبو زكَرِيَّا ، وأبُو إبراهيمَ . وعلىَّ رداءُ قُطْنٍ أبيضُ ، وكان ينبغي أنْ يكونَ رِدَاءَ حريرٍ أسودَ . ولَفْظِى لفظٌ عربيٌّ ، وكانَ ينبغي أنْ تكونَ لغتي لغةَ أهلِ جُندَيْسابُورَ .

---

(١) بأرماقه : جمع رمق ، وهو بقية الحياة أو الروح أو آخر النفس .

(٢) رَغِيبًا : الرغيب واسع الجوف الأكول .

(٣) اللِيط : قشر كل شيء ، والمقصود هنا قشرة القصبة اللازقة بها .

(٤) يتوطؤه : يدوسه برجله .

(٥) أكسد القوم : أى كسدت سوقهم ، وأكسد الشيء : لم يَرُج لقلة الرغبة فيه .